أحذية وكلمات

وقصص أخرى

شريف محي الدين إبراهيم
أحذية وكلمات......... قصص قصيرة
الطباعة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد
بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣
ص.ب. ٢١٥٧١ فيكتوريا ــ اسكندرية
تليفون : ٥٣٥٤٤٣٨ ــ الإسكندرية
رقم الإيــداع : ١٠٩٧٨ /١٩٩٨
الترقيم الدولى : 7 - 13 - 5904 - 977

الرسوم الداخلية مهداة من الفنان محمود ناصر

أحـذيـة وكلـمـات

وقصص أخرى

شريف محيى الدين إبراهيم

الطبعة الأولى

الناشــــر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ ــ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

"ن والقلم وما يسطرون"

إهـــداء

إلى الصـديق العزيز،،

الأسـتاذ / محمد أحمد المرسي

ما مـر يـوم قـط إلا وتيقنـت أنـك إنسـان بكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى، ربمـا من طـراز مختلـف ولكنـه حتمـاً طـراز نـادر جـداً .

مع حبي وتقديري

شريف محيي الدين



كلمـــة :على سبيـــل التقـــديــــم

الأديب / عبد الفتاح مرسى

القراءة الأولى لمجموعة قصص "أحذية وكلمات" للأديب السكندرى شريف محيى الدين، تعطى انطباعا أوليا بهيمنة ولـــع خاص للأديب الشاب يدفعه الى رصد التفاصيل وطرق أبـــواب القصة الحديثة التى تعتنى بالظلال والألوان والدوران حـــول - الموضوع - فى تلك العلاقة الدائمة بين زنبور عسل النحل وتلك الأزهار فى الحقول الشاسعة.

ولعل قصص - الجرو والجميلة، الخادم، علـــى الـــهواء، وقصة القلم وغيرها .. تعطينا المثال على ذلك.

أما القراءة الأكثر عمقا ونفاذا. فلابد وان تكشف عـــالم الأديب شريـــف محيى الدين - الخاص - اذا ما قرأنا بشيء من التأني قصص - الثعبان، المظروف الأصفر، كـــلاب المدينـــة، الرجل والمصعد، وقصة أحذية وكلمات .. وغيرها.

ففى القصص الأولى، يحوم (شريف) ليرشف الرحيـــق ويستكن لخروج الشهد، اما فى القصص التى تعبر عن عالمـــه الخاص. فانه يركن الى ذلك الصوت الداخلى ليقدم هموم الانسان المعاصر فى لقطات إبداعية تقترب من مشاهد (الســـينما) وفـــى مواقف تتسم بالحركة السريعة .. أو بالسكون القلق .. !

مع تداعيات داخلية وعدم التقيـــد - بالحدوتـــة - فـــى ملاحقة بأحوال القصة الحديثة.

"لقد تعرفت على هذا الأديب الشاب من خـــلال تواجـــده الدائم فى ندوات الأدب - وكانت قصصه مثار شد وجذب بيـــن النقاد وكان دائما هادئ الأعصاب، يجعل عمله الإبداعـــي هـــو

الذى يتكفل بالدفاع عن نفسه .. فأعجبت بإصراره وتمسكه بما يبدعه وعندما كان يضطر للرد - ليزيل السدود التى تعترضه - كان يدفع بمزيد من الإبداع الجيد!

ولعل القارئ سيتذوق تلك الإبداعات الجيدة - عندما يقرأ هذه المجموعة التى بين يديه والتى تمتلئ بالألوان الطبيعية - وفى بعض القصص يعلو الرمز - الذى يتجاوز الغموض الى اللوحة التعبيرية.

"وقد تعمدت فى هذه العجالة أن لا أقدم أمثلة من القصص خاصة والقارئ على وشك الولوج الى عبقها ..!"

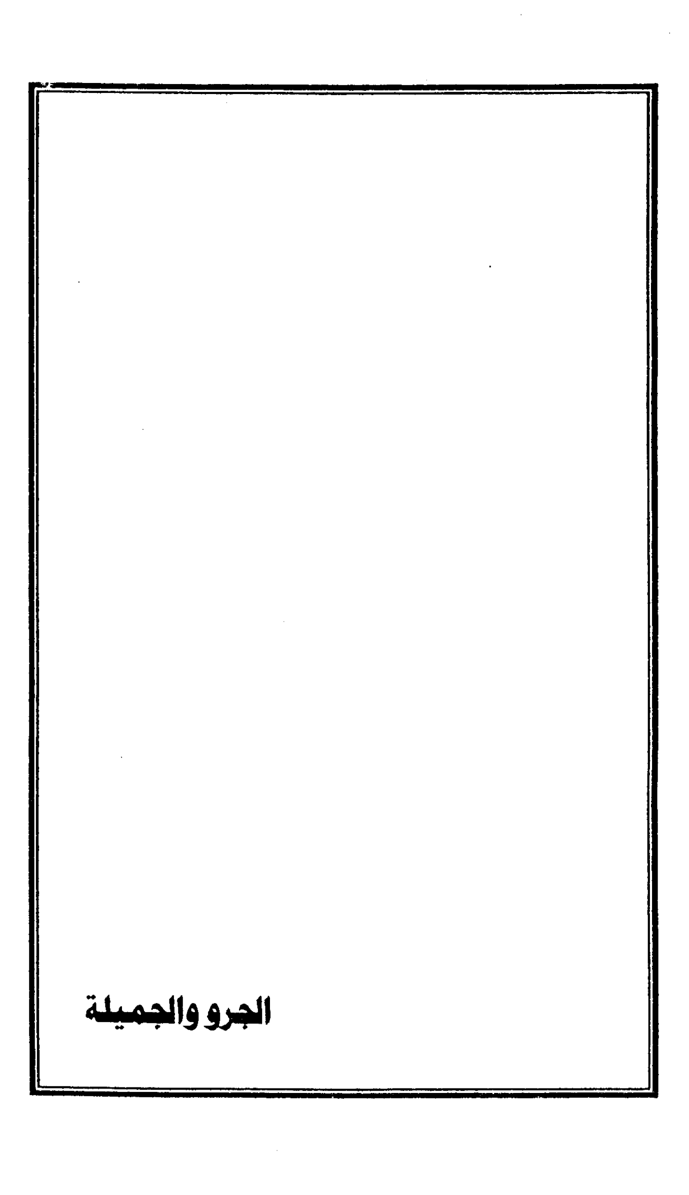
وقد أسعدنى أن أقدم - الزميل والصديق شريف محيى الدين - القاص الآن والروائى فى العمل القادم ..

لأشيد بتلك البساطة الرائعة فى الكتابة - وكأنه ينسجها من خيوط الشمس مع أن وراء العديد من القصص .. وقفات فلسفية تدعو الى التأمل والتفكير ..! - انظر عنوان المجموعة - عندما يجاور الأحذية مع الكلمات!!

ولعل (شريف) بهذه المجموعة (أحذية وكلمات) يشق لإبداعه طريقا، ويفسح لنفسه مكانا بين أدباء الثغر ..

مع عميق تمنياتى له بالتوفيق ..

عبد الفتاح مرسى



الجرو والجميلة



بحث الجرو وسار كثيراً !!

التفت حوله !!

كانت البيوت العالية في الشوارع تحجب عنه ضوء شمس الظهيرة.

وكانت الفتاةُ صغيرةٌ رشيقةٌ جميلةٌ تطل من النافذة المواجهة ... وشاب وسيم يحمل باقة زهور ويملأ الشارع غناء وضجيجاً ... وكانت القطة ذات العيون الرمادية تموء برقة خلف أحد صناديق القمامة ... التفت الجرو إليها ... نظرت إليه في دهشة مشوبة بالخوف ... لمحت الفتاة الموقف من النافذة ... أدارت المذياع ولبثت ساكنة ... انبعثت الموسيقى رقيقة حالمة ... لمعت في عيني القطة دمعة صغيرة ... جذب الجرو رغيف خبز ووضعه أمام القطة ... ضحك الشاب... أشار إلى الفتاة إشارة خفية.

كـــان الشـــرطي ضخـــم الجثـــة ذا كـــرش منتفـــخ يتحـــــرك على الرصيف المواجه.

وكان الرجل العجوز ينادى الفتاة أن تغلق المذياع.

وكان الجرو ينظر إلى القطة وهى تلتهم الخبز وقد جعل ذيلـــــه يهتز في سعادة بالغة.

أغلق العجوز المذياع.

صاح الشرطي في الجرو ... أخرج هراوة صغيرة.

صفع العجوز الفتاة الجميلة.

سقطت الزهور من يد الشاب الوسيم.

ماءت القطة فى فزع ... كورت جسدها ... كشرت عن أنيابها.

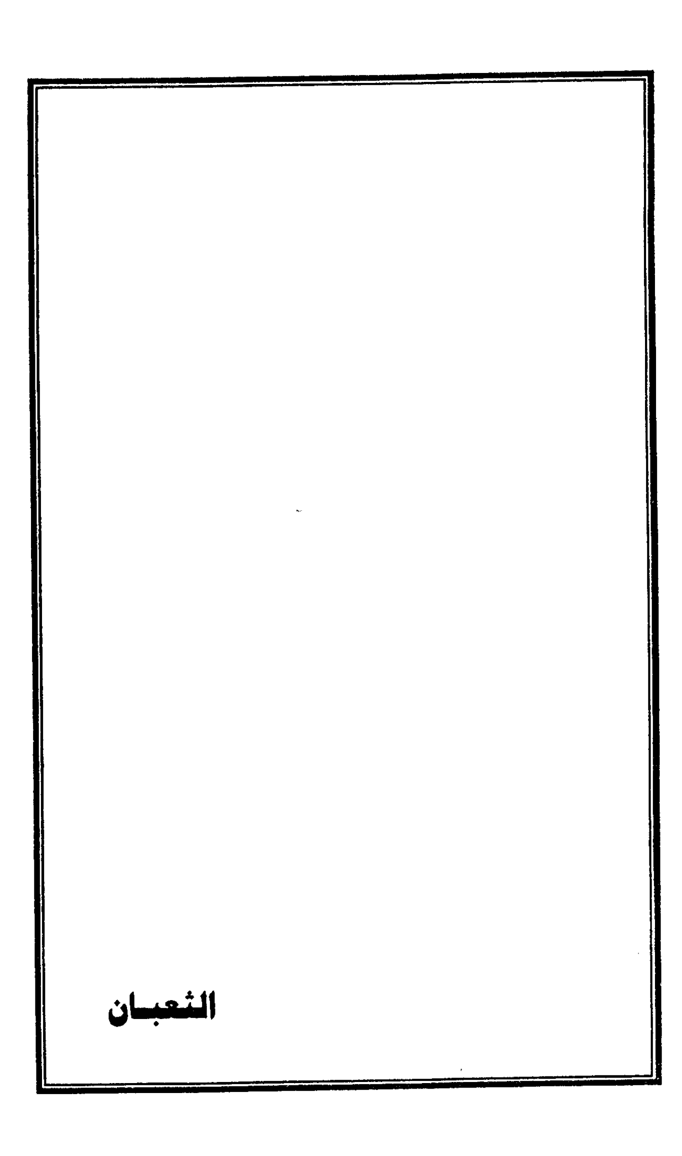
أغلق العجوز النافذة في عنف.

هوى الشرطي بالهراوة فوق رأس الجرو ... تراجع في دهشـــة مذعوراً... اصطدم بصندوق القمامة .. تبعثرت محتوياته وولت القطة هاربة.

كان الشاب الوسيم ينسحب فى صمـــت وهـــو ينظـــر خلســـة إلى الجرو الذي سقطت دماؤه على الأرض مختلطة بـــالزهور والقمامة والخبز.






الثعبان



الثعبان ... يلتف حول الجسد ... ينقبض على نفسه ... يعصـر بشدة .. تتمزق عضلات الرقبة .. تتكسر عظامها ثـم تسـقط الفريسة جثة هامدة.

(١)

"الدرويش"

- غدا أُخرج لكم من باطن الأرض ماءً وذهبا.

تحلقوا حوله وهو يحرك عصاه السـحرية ... كـانوا جميعـا من الأطفال ... أخرج من جيبه قطعا من الحلـوى ثـم نثرهـا عليهم ... تدافعوا يتخاطفونها ... أخرج من جيبه الآخر حفنـة من قطع النقود الفضية وبدأ يبعثرها حولهم.

تعالت صيحات الجميع .. تدافع الصبية مـن كـل فـج .. ذاع صيت الدرويش في المدينة ... وفى اليوم التالي تأخر كثـيرا.

عندما نظر إليهم وجدهم جميعا من الشيوخ ولم يجد بينهم طفـلا واحدا !!

اعتذر الدرويش ووعدهم باللقاء في اليوم التالي ... ولـــم يـــأت الرجل !!! انتظروه طويلا ولكن حتى هذه اللحظة لم يظهر لـــه من أثر ... فقط ثمة ألف جثة وجثة ملقاة في بئر عميق وشـــبح الدرويش يردد في الأرجاء :

– اليوم أُخرج لكم ماءً وذهبا.

(٢)

" الألوان "

عندما بدأت زوجته في الحديث كان مستغرقا في التفكير العميق قالت له :

– يمكنك الآن أن ترحل ولا تخشَ شيئا قط.

نظر إليها في تردد ثم همس:

- كيف أتركك وحدك ؟

- فترة مؤقتة ... فقط عدة سنوات وبعدها تعود إلينا غانما سالما محملا بالخيرات الوفيرة.

وعندما عاد الرجل كان يحمل معه حقيبتين كبـــيرتين ملونتيـــن ولم يعرف الشارع ... تغيرت الملامـــح ... البيـــوت ارتفعـــت



تناطح السحاب والألوان اختلطت ولم يثبت فــي عينيــه لــون محدد.

بحث الرجل طويلا عن اللون الأبيض ولكن عبثا ... ثمة لونـان لم يجد لهما من أثر " الأبيض والأسود".

الناس تتزاحم تجرى من حوله وقد امتزجت قطــرات عرقــهم بغبار الطريق، والإعلانات الكهربائيــة فقــدت بريقــها حتــى الأطفال لم يعد يرى في عيونهم تلك النظرة القديمة التي كــانت آخر ما رأى قبل أن يغادر أرض الوطن.

عندما طرق الرجل باب منزله لم يخرج له أحد !!!

وضع الحقيبتين الممتلئتين وسأل الجيران عن زوجتــه وابنتــه الصغيرة.

قالوا له في دهشة:

- أية زوجة وأية ابنة؟!

حاول أن يفهمهم الأمر ... حاول أن يذكرهــم بنفســه ولكنــهم أصروا على أنه حتما قد أخطأ العنوان.

تداعى الرجل فوق إحدى الحقيبتين وجعل يفكر في ألم ... إنـــه يعرفهم ... نعم يعرفهم جميعا رغم تغير ملامحهم التي شـــاهت بصورة عجيبة.

ولكن ... ؟! ولكن لا أحد يعرفه !!

(٣)

" الثعبان "

كان الثعبان يزحف نحو الجندي !!!

الشمس حارقة وهو ملقى في الصحراء يكاد يغشى عليه ...

ملابسه ممزقة وجرحه ينزف بغزارة.

سأله الضابط وهو مصوب بندقيته إليه:

– إلى أي الفريقين تنتمي ؟!

وأجابه الجندي :

– لا أحد.

قبل أن يفرغ الضابط رصاص بندقيته في صدر الجندي كـــان الثعبان قد أفرغ سمه في قدم الضابط العارية.

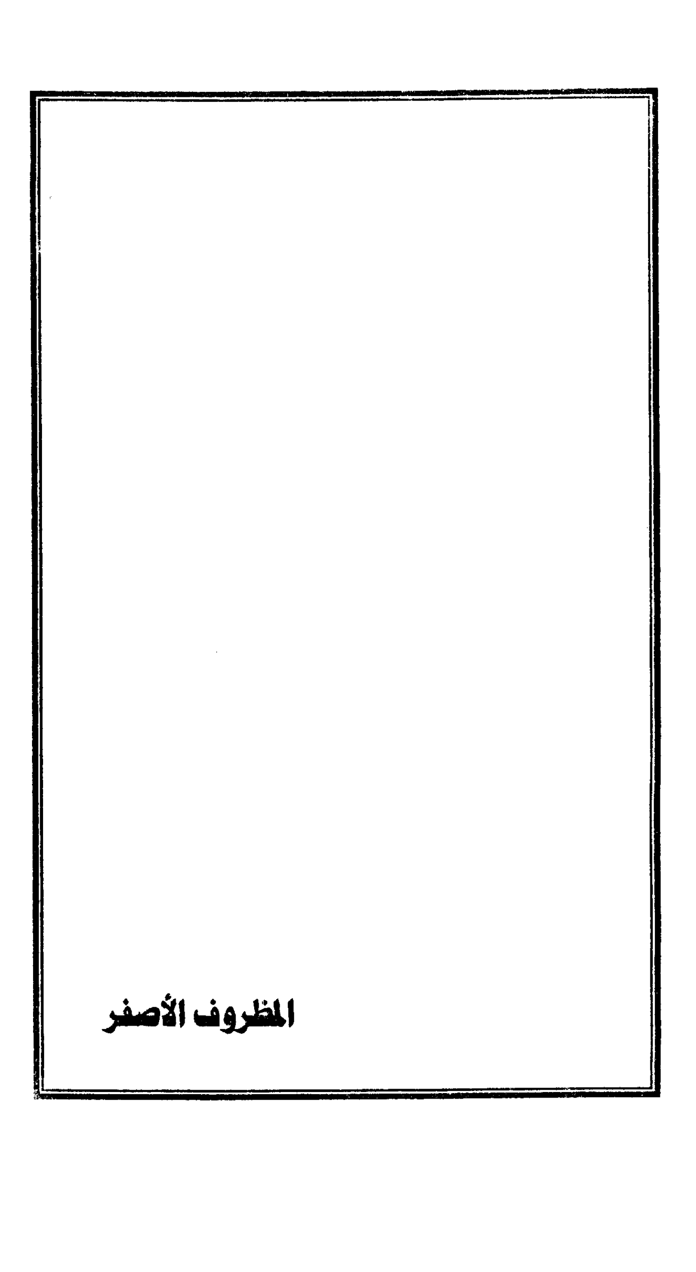
عندما سقط سأله الجندي في صعوبة:

- وأنت إلى أيهما تنتمي ؟!

همس الضابط في ألم :

- لا أحد.





المظروف الأصفر



مطلوب للتعيين فورا... المرتب ضخم ... ومزايا عينية أخرى.

لا توجد لدينا أي شروط تتعلق بالمؤهل أو بالسن.

تقدم طلبات الالتحاق باليد على العنوان التالي.

القاهرة ... ...

***

العاصمة ...

شتاء ٩٣ ...

عند شروق الشمس يهبط من السيارة التي أقلته من بلدته النائية البعيدة،تتابعها عيناه وهي تنطلق في اتجاه العودة العكسي، يمضى في طريقه، يسير بخطى واسعة، يمناه متشبثة بمظروف أصفر مكتظ بالأوراق، يسراه تداعب جيب بنطلونه الأسود الوحيد .

ساوى شعره الغزير الكث ... ربط أزرار ياقته وعقد رابطة عنقه.

الناس يقفون أمام محلات البقالة وحوانيت الأطعمة ومطاعم الفول المنتشرة في كل مكان.

ثمة امرأة ضخمة الجثة تفترش أرض الرصيف وقد علت أمامها أكوام الملابس المستعملة، يتحلق الناس من حولها ... يتزاحمون في صخب محدثين ضجة هائلة ... يجذبون قطع الملابس الملونة من بين أيدي بعضهم البعض ... يتشبث في هلع بمظروفه الأصفر.

تداعب المرأة بأصابعها محول المذياع المندس بين الأكوام.

انفجار مروع أمام مدرسة للأطفال في محاولة لاغتيال رئيس الوزراء .

وزير الداخلية يصرح انه سيتابع الموقف باهتمام وأنه لن يفلت أحد من العناصر الإرهابية.

انفجار ماسورة مياه ضخمة بالقرب من كوبري أمبابة.

المياه تعوق حركة المرور لعدة ساعات.

انقطاع المياه عن بعض مناطق القاهرة لعدة أيام.





استكمل طريقه ... ثمة ضجة يحدثها رجلان متشـــــردان كانـــا يلعبان الملك أم الكتابة.. ملابسهما قذرة مهلهلة ... مر أمامـــهما ثم وقف برهة حائرا ... بحث في جيب سترته.

أخرج العنوان ثم جال ببصره فيما حوله... تطلع في قلق إلـــــى ساعة يده القديمة ... بدت تعبيرات وجهه كأنه إنسان وحيد تائــه مرتبك ... رفع المتشردان أعينهما عن قطعة النقـــود المعدنيـــة وقد اكتست شفتاهما بالسخرية ثم صاح المتشرد الأصلع وكأنـــه قد قرأ كل أفكاره، قال وهو يشير بيمناه :

– من هنا نفس الطريق إلى آخره.

في نفس الطريق كانت عناوين الجرائد مدونة باللون الأحمر .

سقوط كتل صخرية ضخمة في منطقة المقطم ... انهيار عشـرات المنازل ... مصرع وإصابه العديد من السكان ... تأجيل قـــرار نقل سوق روض الفرج منعا لإثارة الشغب ...

هزيمة المنتخب القومي من فريق متواضع ...

إقالة المدير الفني الأجنبي وعودة المدرب الوطني.

هز بائع الفول رأسه وهو يناوله سندوتشات الطعمية الساخنة.

ثم نصحه بأن يستمر في نفس الطريق.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانيـــة ظـــهرا والطريـــق مزدحـــم بسيارات بطيئة الحركة وأوتوبيسات مكتظة بالأجساد المتلاحمـة وعربات الميكروباص المنطلقة تتلوى في الطرقات المرصوفـــة بالسواد.

بعض الناس يعبرون الطرقات وعيونهم زائغـــة مـــن الـــهلع، والبعض يصعدون إلى الكبـــاري العلويـــة، والبعـــض الآخـــر إلى مترو الأنفاق يهبطون، وآخرون يحـــاولون فـــي إصـــرار اللحاق بإحدى الحافلات المزدحمة.

لمع القلق في عيني الشاب ... تقلصت يمناه علـــى المظـــروف الأصفر ... استماتت عليها ثم تابع طريقه دون أن يلتفت يمنة أو يسرة، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من رؤية بعض الأشـــياء داخل الحارة المواجهة له..

امرأة تجر عربة بها طفل يرضع من زجاجة ... فتاة صغـــيرة تنط الحبل.

واصل المضي ... هاله واجهة رخامية متداخلة لمطعـــم فـــاخر لتناول اللحوم المشوية.

ثمة امرأتان تقفان أمام واجهة المحل وبيدهما سيجارة مشتعلة.

المحل المواجه له لبيع الأجهزة الكهربائية ..... العيون مثبتة على جهاز تلفزيون ملون عليه بطاقة بالثمن الذي تجاوز أربعة أرقام ...

مباراة كرة القدم ، وجوه اللاعبين تكسوها حمرة، والأرض خضراء، وفى نهاية الطريق يقف أهالي المنطقة يراهنون على الفريق صاحب الزي الأبيض.

توقفت المرأتان عن النظر بفضول إلى المارة، كانت ملابسهما قصيرة ضيقة، وشعر أحدهما غارق في صبغة صفراء فاقعة... ألقت أحدهما بالسيجارة مشتعلة ثم همست بصوت مسموع بعد أن ضمت شفتيها بطريقة أيقظت كل حواسه:

- من هنا استمر في نفس الطريق.

ثم انطلقتا في ضحكة ماجنة سرعان ما تلاشت مع وقع أقدامه المتعبة.

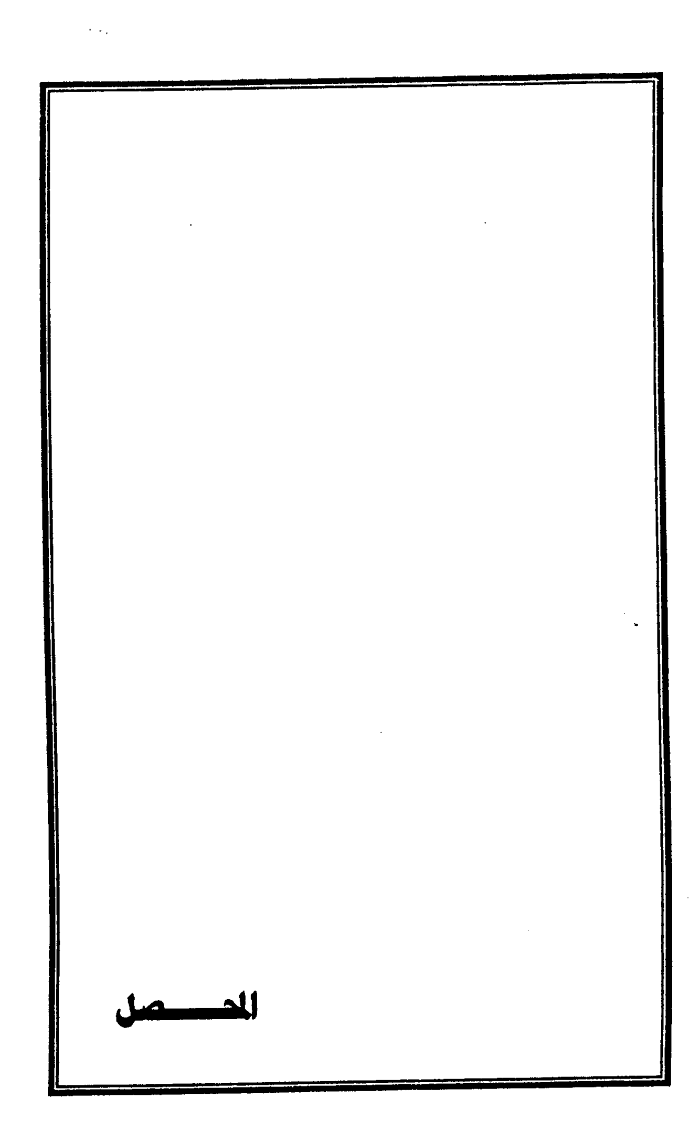
في ركن قصي من الشارع كانت الأضواء باهرة لمطاعم تحمل اسماء أعجمية وعلى مسافة ثلاثة عمارات يلعب بعض الشباب مباراة كرة القدم.. اقترب الشاب منهم، حاول جذب انتباههم ولكن عبثا أن يلتفت إليه أي منهم.

استمر في طريقه ثم دلف بسرعة إلى حارة ضيقة.

أخيرا انفرجت شفتاه عن ابتسامة غريبة !!

كان الممر ممتلئاً بصناديق القمامة ذوات الأشـــكال والأحجـــام المختلفة وتلال من المظاريف الصفراء وهو وحده يقف وســـط أكوام الورق والقمامة !!!

يمناه متشبثة على مظروفه **الأصفر**،،،


المحصل

كان محصل القطار يتحرك بينهم في صعوبة بالغة بينما يحـــاول جاهداً التخلص من أكبر قدر من التذاكر وهـــو مشـــتت الذهـــن موزع البال لا تكاد تفارقه قط صورة ابنته الصغيرة.

سيدة فى ملاءة سوداء تحمل فوق رأسها قفصـــاً كبـــيراً مملـــوءً بالطيور والدواجن وطفل صغـــير يرتـــدي شـــورتا يمـــد يـــده في القفص خلسة من أمه التى تحمله بصعوبة مفرطة، وعجـــوز متكئ على عصاه الغليظـــة وبعـــض الصبيـــة ينظـــرون إليـــه في سخرية ثم يتهامسون، وثمة امـــرأة حـــامل يتفصـــد العـــرق من جبهتها تنظر إلى الجالسين فى توسل مشوب بالازدراء.

- تذاكر يا حضرات.

لبث الجندى نائما في زيه الميري تتدلى قدماه فـــوق رؤوســـهم جميعاً وقد انبعثت منها رائحـــة كريهـــة، وواصـــل الموظفـــون تصفحهم للجرائد اليومية.

- تذاكر يا بكوات !!!

تظاهرت بائعة الدجاج بعدم السمع .. لكزهـــا المحصـــل بقـــوة في ظهرها ... كادت تسقط ... صاح بها فى امتعاض شديد:

- ألا يكفيك ما تسببينه من ضيق للركاب !!!!

يصرخ الولد صاحب الشورت في ألم بعـــد مـــا قضمـــت إوزة إصبعه ... يبحث العجوز عن قطعة نقود وحيدة كانت فى جيبـــه بينما يصر الجندى على دفع نصف الأجرة.

- الكارنيه.

يجيبه فى حدة:

- سلمته ... رديف.

يلتفت إليه رجل ذو لحية طويلة وجلباب ناصع البيـــاض يـــهمس في وقار شديد:

- اشتراك يا أخي ؟!

ثمة شابان صغيران يجلسان إلى جـــواره وقـــد تدلـــت لحيتـــهما أمامهما في غير تهذيب.

المحصل:

– والأخوة ؟!

– أبنائي.



- إذن أرني الاشتراك !

ينظر إليه المحصل ثم يصيح في دهشة جاذبا انتباه جميع الركاب.

- هذه صورة امرأة !!!

فى هدوء:

- زوجتي وهذا اشتراكها.

المحصل في تعجب:

- أتود الركوب أنت وأبناؤك باشتراك زوجتك، أين هي إذن !؟

كانت السيدة مدثرة بعباءة شديدة السواد لا يظهر منها سوى عينين سوداوين ذي بريق غامض.

يردف الرجل فى حدة:

- الزم حدودك.

ينظر إليه المحصل طويلا ثم يهمس:

- لا بأس.

يضرب الولد الصغير على قفاه لأنه حاول أن ينفلت من تحت يديه ويسب العجوز لأنه تباطأ فى إخراج نقوده.

يتذكر زوجته وهي تبكي بعدما أخبرهـــا الصيدلـــي بثمـــن دواء ابنتهم المصابة بمرض خطير.

يشتبك مع الجندي مصراً على الحصول على قيمة التذكرة كاملة.

تداهمه صورة ابنته شاحبة هزيلة وهو يودعها.

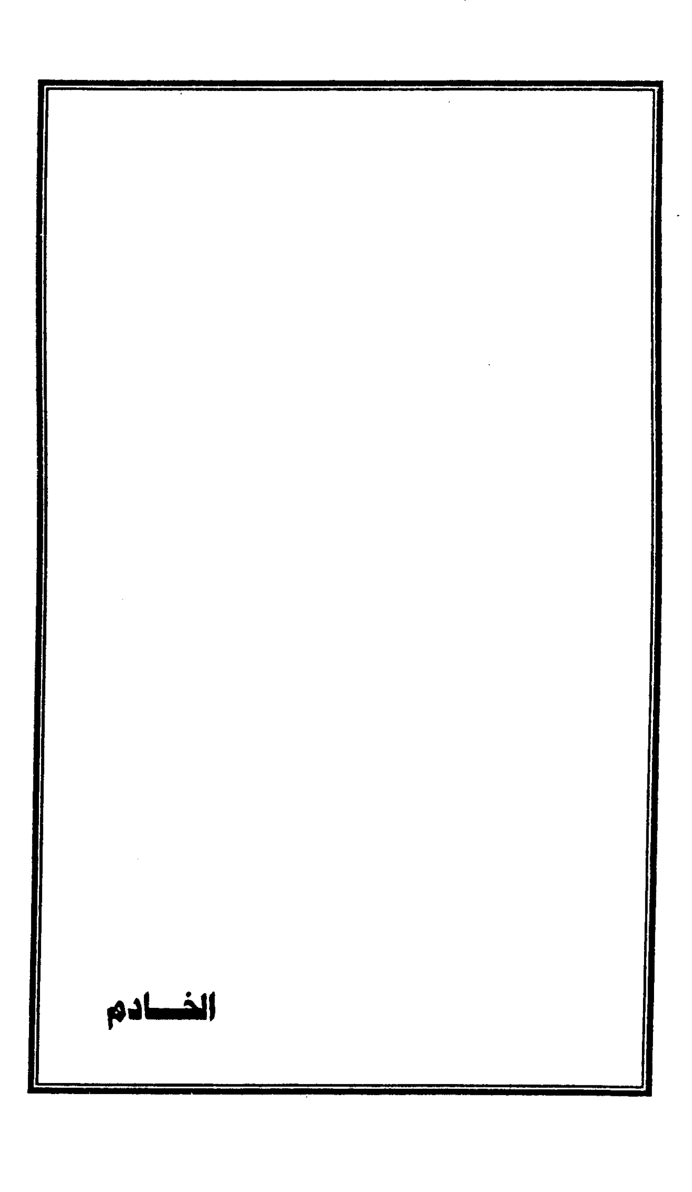
يدفع من فوق السيدة بقفص الدواجن.

تخرج إوزة وتهجم على الولد صاحب الشورت.

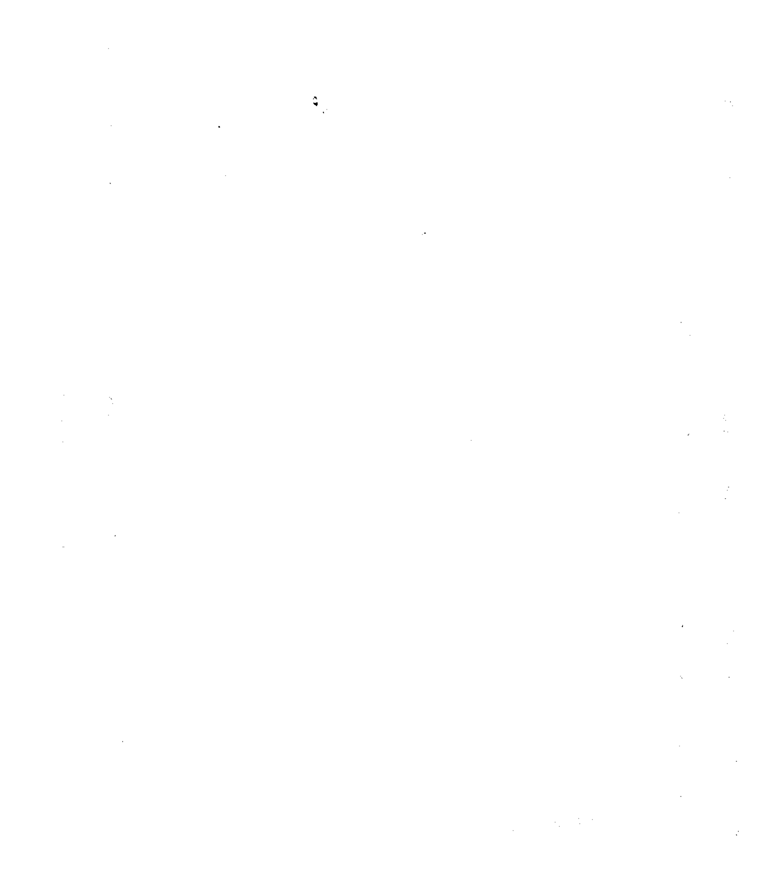
يمسك الجندى بالإوزة الأخرى.

يتدافع بعض الصبية خلف باقي الطيور التي قفزت مـــن النـــافذة مهشمة الزجاج.

تبكي السيدة صاحبة الملاءة السوداء طيورها الضائعة.



الخــــادم



سياط من لهيب .. ركلات ممزوجة بصفعات متتالية .. غرفـــة المطبخ الواسعة الباردة وطفل صغير يبكى فى جنــح الظـــلام .. يهتز جسده كله في شدة مقاوما نشيجه المكتـــوم كـــان عليـــه أن يتجنب النحيب بصوت مرتفع حتى لا يقلـــق ســـيده بيـــد أن آلام السوط في ظهره كانت تشتعل.

قاوم الصغير آلامه المبرحة وراح يتساءل .. إنه لا يدرى حقـــا أي خطأ اقترفه حتى يعاقبه سيده.. منذ أن فتح عينيه الناعســـتين الذابلتين فى الصباح الباكر وهو فـــي عمـــل دائـــب .. أحضـــر الفطور وساعد سيدته فى إعداد مـــائدة الطعـــام ثـــم مـــا لبـــث أن انخرط في غسيل الصحاف والأوانى المتسخة ببقايا الطعام ثـــم خرج لتوه لطوابير الخبز الطويلة ثم ما انفـــك أن عـــاد ليســـاعد سيدته في تنظيف أثاث المنزل ليهرول بعد برهة إلـــى مدرســـة أسياده الصغار لينتظرهم ريثما ينتهون من حصتهم الأخـــيرة .. دوما كان يسترق السمع إلى مدرسهم الكهل وهـــو يلقـــي علـــى مسامعهم بشرحه الوفير الممتع وكان تحلق الصبية مـــن حولـــه يدفع إلى ذاكرته صوراً عديدة ...

بلدته النائية البعيدة ...

ودارهم الصغيرة...

وجده العجوز والتفافهم جميعا حوله بعد غروب الشـــمس أمـــام عتبة الدار فوق حصيرته القديمة منصتين في شغف بـــالغ إلـــى حواديت وذكريات الماضى البعيـــدة الممزوجـــة دائمـــا بـــالحكم والنصائح.

عاد إلى نفسه ... احتوته دائرة الألم السرمدية، كاد يصرخ مـــن فرط الألم ولكنه بالكاد تماسك.

سيدته الصغيرة الجميلة !! كانت هناك !!!

منزوية فى ركن قصي من غرفة المعيشة .. مذعورة خائفة بينما يهوي أبوها على جسده بضرباتـــه الوحشـية المتتاليـــة .. هـــي بملابسها النظيفة الزاهية وجسدها الأبيض الممتلئ وعيناها اللتـان تبرقان دوما بحب الحياة وبشرتها التى تكســـوها دائمـــا حمـــرة محببة .. وهو ببشرته الغارقة فى الســـواد وملابســـه الممزقـــة المهترئة المتسخة وبطنه الخاوية دائما ووجه الشاحب الضامر.

مقاوما صرخة ألم تعتمل فى صدره، عاد يتساءل ؟

هل ضربه سيده لأنه لمحه وهو يسترق النظر إلى صور التلفـــاز هاملا عمله المنوط به ؟





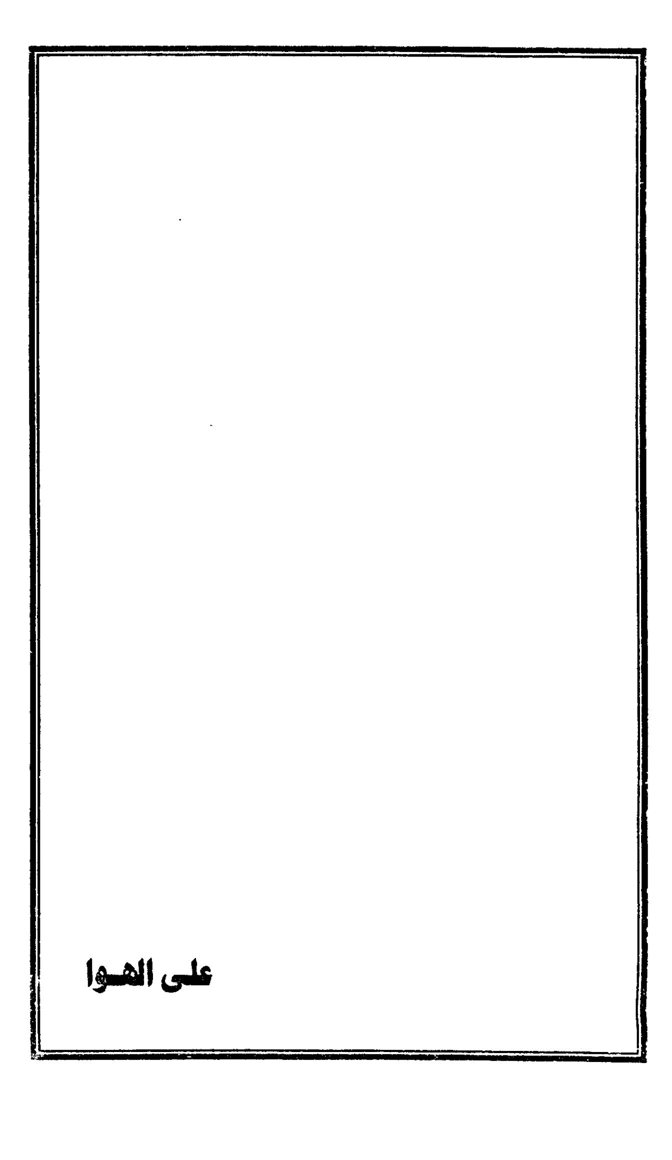
أم لأنه داهمه وهو ممسك بقطع اللعب المنتشرة في أرجاء البيت من قطارات دقيقة ومكعبات صغيرة ملونة أو عرائس صغيرة جميلة !؟

إنه لم يفعل أياً من هذا .. حتى الطعام الذى دوما كانوا يتهمونه بسرقته لم تمتد يده اليوم إلى قطعة منه.

إنه حتى لم يتناول طعام العشاء.

وانفلت من الطفل صرخة ألم هائلة حين احتوته صورة جده العجوز وهو يحتضر (كان مدثرا بغطاء قديم ينازع الحياة والموت معا فوق حصيرته البالية) وكانت صرخة أفزعت كل مَنْ في البيت.




على الهوا



جالس خلف تلال المستندات.

يتأمل فى صمت ساعة حائط المؤسسة.

يحاول جاهدا أن يفك طلاسم الحروف وأن يجمع كـــل الأرقـــام

أمريكا تهدد بضرب العراق !!!

يتجنب نظرات مديره المريبة المستترة خلف جريدتـــه اليوميـــة يخفى وجهه من الساعى الذى طفق يجمع حصيلة اليوم.

الجامعة العربية ترفض وتشجب !!!

ينظر إلى زملائه فى امتعاض وهم يضعون أمامه المزيـــد مـــن الأوراق والمستندات.

العراق ترفض تفتيش قصور الرئاسة.

العملاء لا يكفون عن استعجاله وتأنيبه وعامل التليفون لا يلبـــث أن يطارده بمكالمات عديدة لا تكاد قط تنتهي بعضها لأصدقـــاء يبدو أنه قد نسى نبرة صوتهم.

روسيا تحذر من قيام حرب عالمية ثالثة.

قبل أن يذهب إلى صرافة الخزينة يحاول أن يلملم أوراقـــه ثـــم يعود فيجد جل الأوراق مبعثرة وتلك الزميلة صاحبـــة الجمعيـــة الشهرية وذلك الزميل صاحب البوتيك المتحرك.

ينظر إلى ساعة المؤسسة ...

يجد صعوبة شديدة في معرفة الوقت !!!

أمريكا تتراجع عن موقفها.

يخلع نظارته السميكة ويفرك عينيه.

المنتخب يفوز بكأس أفريقيا.

الرئيس يمنح الأبطال وسام الجمهورية.

مكافأة ضخمة لكل لاعب.

صوت المذياع يتلاشى رويدا ..

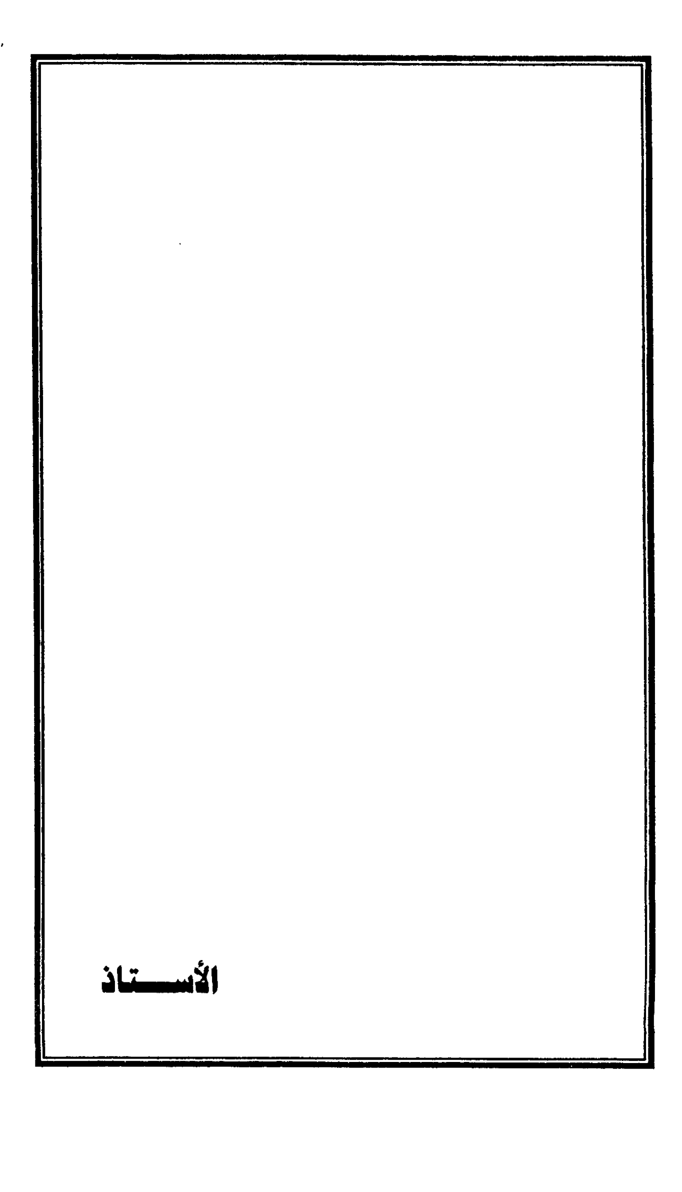
يحاول أن يعرف كم تبقى معه من نقود ؟!

يحاول أن يعرف كم ملف يقبع أمامه ؟!

يحاول أن يعرف أين ذهب زميله صاحب المذياع ؟!

يحاول أن يعرف **الوقت** ؟!


12
1
للعرض



الأســـتاذ



قبل أن يشرع عميد الكلية في إلقاء محاضرتـــه لـــهذا الفصـــل الدراسى أخذ يراجع كشف الحضـــور والغيـــاب لطلبـــة الســـنة النهائية.

- شيرين شوكت !

- ...... !!!

في غضب شديد :

– غائبة كالعادة.

يتمتم بعض الطلبة في غوغائية :

- لقد تجاوزت نسبة الغياب.

وتهمس إحدى الطالبات:

– خسارة.

بعد أن تفحص العميد كشف الحضور طفق يلقى محاضرته فـــي أسى مفرط :

– اقتصاد مصر مدمر .. لا يوجـــد اســـتغلال أمثـــل للمـــوارد لا توجد إدارة حقيقية .. ليس هناك تطبيـــق لأســـاليب ومنـــاهج التخطيط العلمى السليم.

يتفاعل بعض الطلبة معه، يتدخل أحدهم مستفسرا في قلق:

- والنتيجة ؟!

يجيبه الأستاذ الجامعى بتأثر بالغ وبصوت خفيض يعلو تدريجيا:

- النتيجة هي الآن ؟!... عالم ثالث ... بطالة ... أزمة إسكان ... أزمة مواصلات ... ارتفاع رهيب في الأسعار ... انخفـــاض شديد في القوة الشرائية للجنيه المصرى.

يغمر القاعة شحنة من التوتر.

يتصاعد إحساس الطلبة بالموقف.

يشملهم جميعا حفنة من الغضب الممزوج باليأس.

تتبادل الكلمات، تتعدد الحوارات الثنائية الجانبية، يســود المكــان ضجة شديدة ... يصيح الأستاذ الجامعي في حدة :

- هدوء .. أرجوكم جميعا التزموا بالهدوء.

يتدخل الطالب النابه مستفسرا ثانية:

- والحل !؟

يهمس الأستاذ وقد أوشكت الدموع أن تطفر من عينيه:

- الحل هو أن تنظر إلى نفسك .. أن تنظروا جميعا إلى أنفسكم كل شخص في هـــذا المجتمـــع عليـــه أن يحاســـب نفســـه وأن يراعى حقوق بيته وعمله.

يبتلع الأستاذ الجامعي قرصاً مهدئاً ثم يردف في أسى:

- وكذلك حقوق بلده.

***

بعد عدة أسابيع كان كشف النتيجة لنهاية العام الدراســـي معلقــاً على لوحة الإعلانات في إحدى قاعات البحث العلمي.

الجو حار ...

الطلبة في زحام يتصـــارعون ويتشــاجرون جميعــهم يحــاول الوصول إلى الكشف.

في مقدمة الكشف.

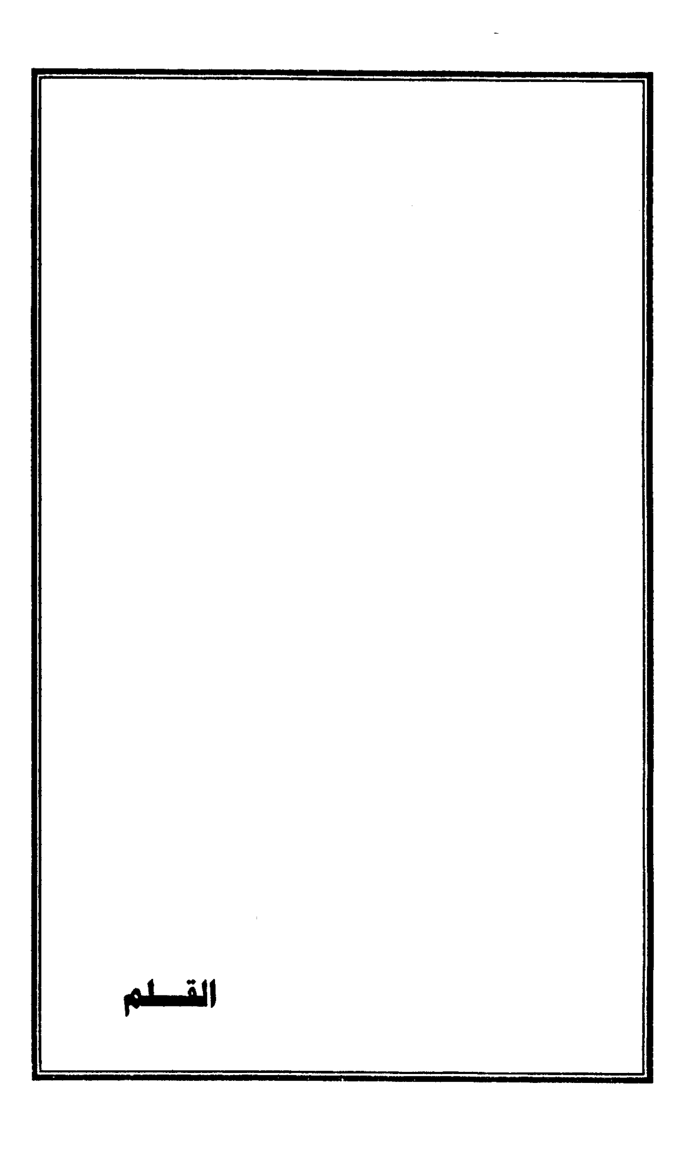
شيرين شوكت.

امتياز مع مرتبة الشرف.

شقراء ...

خضراء العينين ...

ذات ابتسامة ساحرة.


القلم



اهتز القلم في يدي .. تلاشت قدرتـــي علـــى الصمـــت تداعـــت الذكريات تحتويني.

وبينما العرق الغزير يبلل جبهتي الملتهبة المحمومــــــة، تذكـــرت صوته الهامس و (هو) يقول بعـــــد أن ذوى مـــا بيـــن حاجبيـــه الكثيفين، وارتسمت على وجهه علامات الجدية المبالغ فيها:

- لا تترك القلم.

حينئذ كنت أنصت إليه بغير اكتراث متكلفا نظرة غبية محاولا أن أوحي له فيها بكل ما يملك العالم من كتل اللامبالاة.

***

وما كان يلبث (هو) أن يوليني ظهره حتـــى تراودنـــي (هـــي) على عصيان أوامره المتحجرة فانطلق أمرح معها متناســيا كـــل أوامره، ولكنه سرعان ما يعود فيؤنبني مرة ويزجرني مرات ثـــم يعود ثانية فيذكرني بالقلم.

***

بت حائرا بينها (هي) وبينه (هو) .. (هـــي) بحريتـــها ومرحـــها وانطلاقها، و(هو) بقيوده التي ما فتئ يحكم حلقاتها حولي.

وأمام مقدرته العجيبة على كشف الكذب في عيني لم أجـــد بـــدا من أن أمسك بالقلم.

***

سخر الرفاق مني ولكني واصلت هروبي منهم والانطواء علـــى نفسي وحيدا والقلم أما(هي)فلا ريب فقد ضـــاعت فـــي غمـــار الزمن.

***

اهتز القلم بين أناملي المرتجفة بشدة أكثر حين لمحـــت عقـــرب الساعة وهو يمضي في تثاقل وتؤدة وكأنه لم يمض فـــي ســـابق عهده مهرولا ينهب في الأيام والسنين، حتى تقهقرت خصـــلات الشعر الفاحم كبهيم الليل إلى ما بعد منتصـــف الـــرأس وبـــاتت تحتل حفنة من الشعيرات البيضـــاء المواقـــع الرئيســـية فيـــها، وانتشرت التجاعيد العميقة على صفحة وجـــهي كأنـــها خطـــوط لتوقيع الزمن.

***

سقط القلم من يدي ... أتهاوى في موضعـــي ... ثمـــة شـــخص لاحظ تهالكي ... صرخ في رهط من الرجال:

- أنقذوا الرجل.

ضاع صوته سُدى بين الزحام .



وعلى الرغم من الحواجز والفواصل السحيقة التى شيدها الزمـــن بيني وبينه إلا أنني كنت أراه (هو) كان كما هو كســابق عــهدي به بملامح الجدية المرسومة على صفحة وجهه يقف على مقربــة مني، يهمس:

- لا تترك القلم.

أما (هي) فلمحتها ولأول مرة تبتسم بين بضعة وجوه عابثة كانت تحيط بي من كل جانب.

وطفقت تزداد اقترابا، تتوقني بألوانها الممتزجة المختلطة فتحجب الضوء عني.

***

عقارب الساعة لا زالت تسير في تثاقل عجيب لم ألحظه من قبل أتهاوى في موضعي.

لا زال الرجل يصرخ:

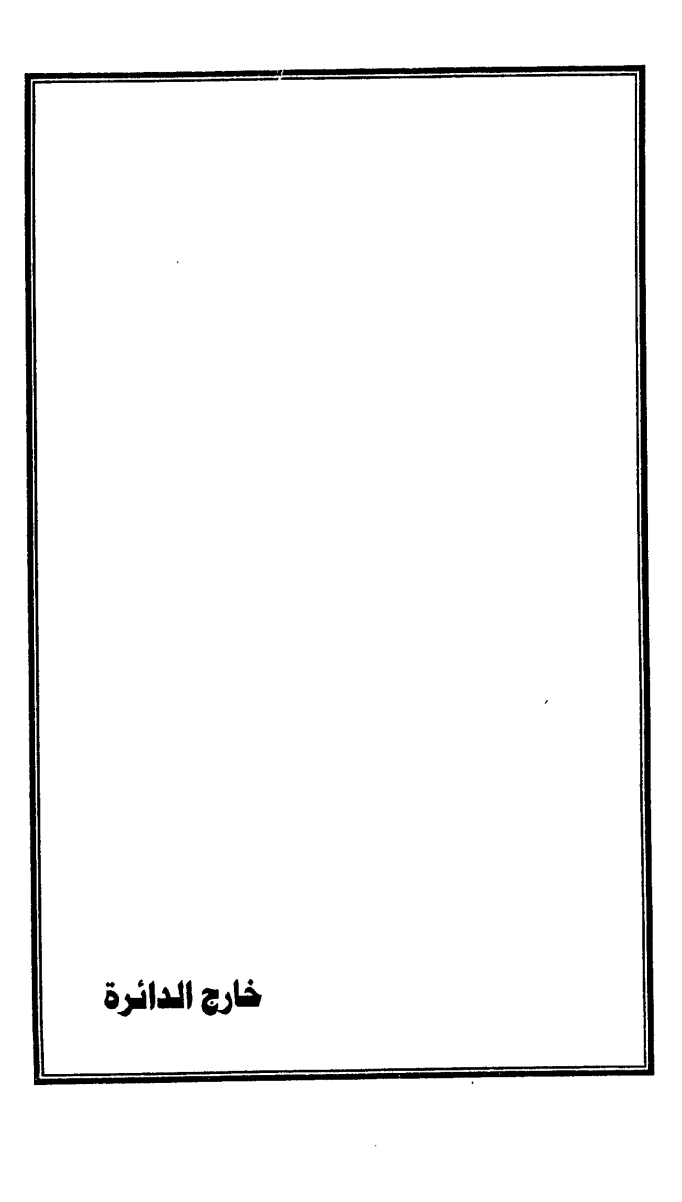
- أنقذوا الرجل.

كادت عقارب الساعة أن تكف عن الدوران تماما.

يجذبني الضباب إلى الهوة السحيقة.

أما (هي) فقد تبددت ابتسامتها وتلاشت كل الوجوه مـــن حولـــي رويدا، بينما تحجرت نظرات عيني على **القلم!!!**




خارج الدائرة



جلس على قارعة الطريق.

كان يتفحص وجوه المارة في اشتياق أنساه لبرهة نفسه.. جـــذب أحد المقاعد من مقهى قليل الروّاد وعزم على أن يدس نفسه بيـن الجموع.

***

مرت عليك سنوات طويلة من العزلة والانطواء كان من ثمارهـا العديد من الكتب والمؤلفات التى تدعو فيها العالم كله إلى الحب.

فور تحطيمك لأسوار عزلتك وخروجك من حيز انطوائيتك.

فور وصولك إليهم .. لم يلتفوا حولك.

تعجبت كثيراً تساءلت.

أين الحفاوة ؟!

أين الترحيب ؟!

***

في تلك اللحظة اصطدمت في رأسه قطعة صغيرة من الحجــارة تألم قليلا .. تملكته الدهشة .. تلفت يمنة ويسرة.

***

إن ما كتبته عن الحب لم يكن نابعا من قصة حبك القديمـــة تلـــك التى انهارت بسبب رومانسيتك المفرطة عندمـــا صـــاحت بـــك حبيبتك :

- يالك من ساذج.

كنت تتحدث بينهم جميعا .. لم تكن تنشد سوى الحب .. الخـــير .. الوفاء.

***

للمرة الثانية أصطدم حجر في رأسه .. تـــألم كثـــيرا .. ســـالت الدماء الغزيرة تبلل جبهته المحمومة.

كاد يصيح :

– مَنْ ألقى بهذه ؟

ولكنه تساءل في دهشة مفرطة :

- ترى ماذا ينشد ؟!

وتعجبت قليلا حينما تضاءل عدد رواد المقهى والمارة بـــالطريق حتى تلاشوا جميعا ولم يعد هناك سواك وسواه.

تمالكت نفسك بعد لأي.

كنت تدرك تماما أنه يترقب رد فعلك المباشر ولكنـــك تظـــاهرت باللامبالاة .. لم تتذكر حينئذ مؤلفاتك العديدة عن الحب والســـلام ولكنك تذكرت نصيحة والدك :

- اياك والغضب يا بنى.

***

كظم غيظه في داخله .. لم يكن يدري سر هذا الشعور الغـامض من العداوة التي ترسبت في أعماقه بغتة نحو هذا الغريب الـذي لم يره قبل الساعة.

ضحكت حبيبته كثيرا عندما حدثها عن مفهومه للحب صاحت بـه في سخرية لاذعة:

- يا عزيزي الفقر أقوى من الحب.
- والعدل !؟!؟
- ابحث عنه.
- ومنطق الحق !؟
- قل منطق القوة.

***

تحركت في أعماقك كوامن عدة .. هربت خـارج العـالم إلـى داخلك .. كنت تنشد عالما آخر وهناك واصلت دعوتك للحب.

أصابته قطعة حجر ثالثة في منتصف رأسه أحدثت بـها جرحـا أكثر حدة من الجرح الأول.

صمت .. تساءل ؟!

- ماذا يفعل ؟!

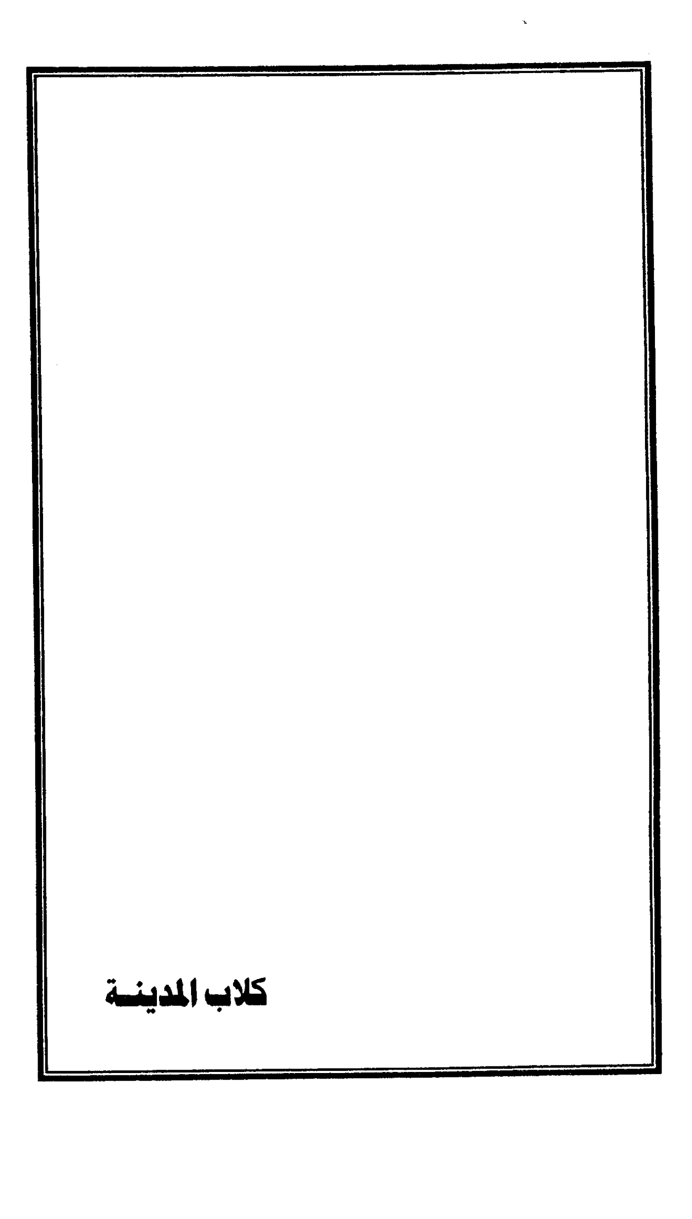
توالت الحجارة عليه بسرعة وعنف .. لم يصرخ من الألم.

***

وتحركت يدك رويدا .. انهالت عليك كل مبادئك، كل أفكـــارك، أمسكت بقطعة ضخمة من الحجارة، اهتزت في يدك المرتجفة.

***

*وتداعت كل مفاهيمه حين تبادل والآخر رمى **الحجارة**.*


كلاب المدينـة



انزوى داخل أعماقه، ضم نفسه داخل نفسه، كاد يتجمد حين دفع الباب وروعه المشهد، مشهد مباغت رهيب !!!
انطفأ فجأة وسكنت في أعماقه كل خلجة وتقلصت كل حركة.
زهرة زوجته الجميلة راقدة على بلاط حجرتـــه، عاريـــة كلـــها أو تكاد، ممتزجة في نشوة محمومة مع سعد الذي بدا لـــه مـــن ظهره عاريا كيوم ولدته أمه.
تضببت الصورة .. تماوجت .. شحبت .. ومادت الأرض تحـــت قدميه حتى كاد يتهاوى.
شهقت زهرة في فزع وولى سعد إلى الخارج هاربا.

***

خائفا .. مشدوها .. حائرا .. مرعوبا .. ممزقا من أثر المشـــهد في أعماقه هوة سحيقة غائرة .. غدرا أخذ .. ثمة طعنة غـــادرة زرعت في ظهره .. في لحمه.
مبعثرة الشعر، ممدة الساقين، مكشوفة اللحم.
يطبق بكلتا يديه على رقبتها حتى يخنقها .. يـــهوى عليـــها بيـــد الهون فيهشم عظامها تهشيما، أم يدفع بسكينته الحادة في لحمـــها العاري ؟!

مشهد ظهر سعد العاري وعرى زوجته وقد اتحدا معا في عـرى واحد جعله يقلب فكرة القتل في رأسه مرات عدة.

أيقتلها ثم يمضى ؟

يجري .. يفر هاربا .. ولكن إلى أين ؟

إلى أين يولي هاربا وهو الهارب دائما ؟

***

ترى ما الذي جاء به اليوم على غير عادته مبكرا وهـو الـذي أخبرها بالأمس أنه سيمضى نهاره كله في حمل شكائر الأسـمنت والرمل ؟!

لم تكن له ثمة وظيفة ثابتة أو عمل دوري يسترزق منه .. حينـا يعرج على أي دار من دور الحي يعرض عليهم نفسه وخدماتـه فتعطيه إحدى النسوة قطعة من الخبز وبعض المرق يقتطع منـه جزءاً لها، يدسه في جيب سـرواله الطويـل المـهترىء رغـم نظافته، و أخرى تدس في جيبه حفنة من النقود الفضية الرنانـة التى دوما كانت تخلب لبه ويطرب لها فؤاده.

كان يقضي لهم بعض المهام في سرعة تثير في نفوسهم دهشـة لا تخلو من ريبة بيد أنها في الآن ذاته تقيهم شر طابور الخـبز الطويل ومشاجرات الجمعية التعاونية وحرارة شـمس الطريـق الملتهبة القائظة.

حينا أخر قد يمسح لهم الأرض أو يغسل بعض الصحاف.

***

إنها لا تخشاه.

وكيف تخشاه ؟!

فما هذا الجسد الخائر العاري إلا جسدها، وما هذا الزوج الـــذي استباحت عرضة إلا بالزوج الأخرس الأبله الذي لا يعــي مــن أمره إلا قليلا.

إنها كثيرا ما لمحت سعد وهو يهوى على قفاه بكف يده الغليظـة ومرارا ما صرفت عنه صبايـا الحـي ومطاردتـهم إيـاه فـي الطرقات مرددين:

– العبيط أهه.

ليلا كان يأوي إلى مطعم أبيها الحاج غريب .. يقبل على طعامـه في نهم ينقده مرة ثمنه في إصرار بالغ ومرات عدة يمضـي دون أن ينقده حتى قرشا واحدا.

ولم يكن الحاج غريب رغم بخله الشديد وحبـه المفـرط لجمـع المال ليطالبه قط بالثمن.

***

من النافذة المواجهة له كانت عيناه على نهاية الطريق.

كان يموج بالحركة الدائبة، يعج بالباعة الجائلين، يفيض بالضجيج والصخب المختلط المبهم.

لمح بعض الصبية تلهو بجرو صغير وقد ربطوه من عنقه المتسلخة حتى كادت روحه أن تفيض، كانوا يسحبونه على الأرض بقوة، يجرونه وكأنهم يكنسون به الطريق والكلب خائف مذعور متصلب الأطراف، يستغيث منهم بهم.

راودته نفسه أن يهبط فينتزعه منهم انتزاعا ولكنه سرعان ما نكص على عقبيه حين احتوته صورة زهرة العارية.

***

في أعماق زهرة ثمة سؤال كان يلح .. يفرض نفسه بقسوة أكان الأخرس يحسب حقا أنها تزوجته ولعا في وسامته المفقودة ورجولته الضائعة تحت أكف الجميع وركلاتهم ؟

إن الناس في الحي كانوا يضربون أخماسهم في أسداسهم وهم يرمقونهما معا، هي بصدرها الناهد وخصرها النحيل وقدها الممشوق وعينيها الزرقاوين النجلاوين وأنوثتها الفائرة، وهو بقبحه وسواد وجه وخرسه وبلهه وضيق ذات يده.

وتشهق إحدى النسوة العجائز تعجبا وسخرية وهى تلعن أحوال ابناء أخر الزمن بينما يردد في حسرة بعض الرجال ممن تجمعوا في المقاهي للهو والسمر.

- يدي الحلق للأخرس.

***

صمته يوشك أن يقتله...

خيالات بعيدة تحاصره، تود لو تداهمه، رجل عجوز قد انحنى ظهره وطريق موحل طويل لا يوشك قط أن ينتهي وطفل في السابعة يلهو في أثره، يداعب قطرات المطر المتساقطة في غزارة لم تعهدها قط حداثة سنة، ووجه أمه الغارق في السواد والمرض، كانت تودعه وأبوه يسعى به إلى دار أحد رجال المدينة من الموسرين ممن يسبقون اسمه دائما بالسيد أو يعقبونه حتما ببك.

***

إنه يتذكر اليوم الأول له في المدينة ...

الشوارع واسعة نظيفة ، والأضواء باهرة متلألئة، وواجهات المحال المتجاورة يبرق زجاجها بما تحويه من تحف جميلة وعرائس عجيبة في حجم الإنسان، ترتدى قطع الملابس الملونة الزاهية - تلك العرائس التي كانت دوما تولد في أعماقه إحساسا مبهما من الوحشة والغموض والخوف - وفي الطرقات المرصوفة بالسواد ثمة فتيات بيضاوات حسناوات كحسن بنات الأعيان، ورجال أغنياء يجوبون الطريق في سيارات فارهة

تمضي في سرعة البرق والعمارات شاهقة أعلى من أبراج الحمام، ونهر النيل واسع عميق ينساب من مجهول عظيم إلى مجهول أعظم، والازدحام دائم مستمر كأنه مولد كبير ما من سبيل قط إلى فضه، والإعلانات ملونة براقة، والميادين متسعة خالية من الكلاب .. إنه لفرط دهشته يكاد يقسم أن المدينة كلها خالية من الكلاب الضالة الشاردة لا كقريتهم الصغيرة النائية الممتلئة بهم.

***

ما فتئت زهرة تراقب حركاته وسكناته وانفعالاته، وفي أعماقها القلقة عادت إلى نفس السؤال:

- أولم يكن يدرك حقا سر زواجي منه وإصراري عليه أم أنه قد نسي ؟!

إن ما تتذكره زهرة أنه كان عليها أن تسعي جاهدة لإخفاء فضيحتها ولم يكن أمامها سوي ذلك الأخرس المدله في عشقها والذي سارعت بالزواج منه بعدما وجدت من سعد كل إعراض وتجاهل ،لذا عزمت علي إتمام الأمر برمته قبل انكشاف سرها وذيوعه أمام سكان الحي ورضخ أخيراً الحاج غريب لرغبة ابنته بعدما أدرك بعض الحقيقة أو كلها.

ولم يجد الأخرس من حرج في أن يتغاضى عن أشـــياء كثـيرة فولعه المفرط بها جعله لا يبصر من الأمور سوي أنها ســتصبح زوجة له، بيد أنه لم يكن ليحسب قط أنـــها لا زالـت مسـتمرة علي علاقتها بسعد، حتى هي نفسها لم تكن لتدري بسر اسـتمرار علاقتها بذلك السعد الذي كلفها في صفاقة مفرطة مـــا لا طاقــة لامرأة به ، ويكفيه أنها لم تكن مرة في أقصي درجات احتياجـــها إليه وتجده إلي جوارها فهي لا تعي قط كيـــف تقبلـت أعــذاره الواهية التي ساقها إليها والتي حالت بين إتمام الزواج بينهما فـــي تلك الآونة ، وهي أيضا لا تدرك كيف آمنت بوعـــوده الوهميــة بالزواج منها حين تسنح الظروف .

- ياله من رجل.

هكذا همست زهرة في أعماقها حيرة وتعجبا حين أدركـــت أنــه عاد ثانية إلي سابق عهده معها مواصلا تخليه عنـــها فـــي أشــد الأمور حرجا فها هو قد تركها وحيدة حائرة بعدما قضي وطـــره منها.. .. تركها وحيدة في موقف لا تحسد قط عليه وفر هاربــا وكأنه عاد إلي موقفه القديم منها الغارق في الخسة والصفاقة يـوم تركها لفضيحتها وعارها وحيدة لا ساتر تستتر به ســـوي ذلــك الأخرس .

***

لا زالت عينا الأخرس متعلقتين بنافذة حجرته المتواضعة، كانت عيناه علي الكلب المذعور الغارق في دمائه بين أيدي الصبية الذين تحولت كلماتهم العالية إلي مشاجرة حامية علي مَنْ يجره علي قارعة الطريق.

***

حاول طرد ذكريات الماضي البعيد، حاول أن ينسي اليوم الذي طرد فيه من منزل سيدة مريضا شاحبا هزيلا... إنه الآن وهو ملقي في عرض الشارع أضحي يفتقد أشياء كثيرة بل يفتقد كل شئ وبات عليه أن يسعي جاهدا إلي رزقه.. ..يسعى ككلب ضال أو قط شارد .. .. قد تكفيه لقمة عفنة وقد يسد رمقه قطعة عظم بها بقايا لحم.

وتداخلت الصور .. .. سعد البريء وزهرة الجميلة ومشهد عريهما المتحد الذي دفع في أعماقه بأحاسيس شتى متناقضة.

زهرة بقوامها الممشوق بشعرها المنسدل خلفها في حرية لا تخلو من جرأة، بتقاطيع وجهها المتناسقة، بسحر عينيها، بحبها الذي كان بمثابة طوق النجاة الذي راح يتشبث به لينقذه من أغوار يم سحيق.

وسعد .. .. سعد الوضيع النذل .. .. سعد الأفاق الداعر.

واشتعلت أعماقه حزنا وحيرة وعجـــزا وســقطت مــن عينيــه الشاحبتين دمعة ساخنة فوق بلاط حجرته البارد.

لمحت زهرة دموعه المنهمرة فلم تتمالك نفسها.

صاحت به:

- لماذا لا تتكلم ؟

لماذا تتحاشى حتى مجرد النظر إلى وجهي ؟

ثم في توسل:

- أرجوك افعل أي شئ ... تحرك ... تشاجر ... أصرخ ... حطـم الأثاث ... ولكن لا تبكى.

***

كان غارقا في دوامة سحيقة من الألم والكره ... كره عميــق ذي جذور تشعبت بغتة ضاربة بفروعها إلى أعماق بعيدة وما لبـــث أن استحالت إلى قيود أخطبوطية هلامية بشعة.

كان يكره كل شئ ... يكره سعد البذيء بوقاحته وخسته وعـــراه المتحد بعرى زوجته ... يكره أطفال الحي بملاحقتهم لـــه دائمــا بالطوب والسخرية، يكره الحاج غريب وحبـــه المفــرط لجمــع المال، الذي كثيرا ما لمحه وهو يخلط قشر البطيخ بالسمك المقلي في الزيت ... إنه يكره أولئك الشيوخ الصامتين، الضائعين علـــى المقــاهي وأولئــك الصبيــة الذيـــن يســـحبون الأنفـــاس

من النارجيلة وتداعب أصابعهم لفائف السجائر المحشــوة بقطــع الحشيش ويدفعون بالحقن المملوءة بالمخدر في أجساد بعضـــهم البعض وأولئك النسوة المتسكعات ليلا الماضيات فــي ســيارات فارهة إلي دور هو يعلم جيداً ما يدور بها.

***

وازدادت القيود انغلاقا عليه وود لو يصرخ ولكنه لم يستطع.

عندئذ فقط أدرك أن بالمدينة كلاباً بل هي مليئة بالكلاب لا ليست كلاب مسالمة مسكينة مثل كلاب قريتهم الهزيلة الشــاحبة التــي يسد رمقها كسرة خبز صغيرة وبعض الماء وإنما كلاب ســعرة جوعى موزعة في كل مكان... في الشوارع والمحال والميادين... في الجمعيات التعاونية والحافلات المزدحمة والنوادي الليلية بــل وفي البيوت والسيارات والحدائق.

***

كان الأخرس ينظر إلي الشارع مسكينا حائرا تتقاذفـــه الظنــون وكانت أيدي الصبية لا تزال تعبث بالجرو الصغــير الــذي بــدا وكأنه غارق في دمائه... واشتعلت أعماقه، اضطرمت بشدة ثـــم نظر إلي زهرة نظرة غريبة ألجمتها تماما عن الحديــث وعلــي حين غرة قفز إلي الخارج، وفي عصبية نزع الجــرو الصغــير

من أيدي الأطفال واندفع يهرول في الطرقات، يهيم على وجهــه بجلبابه الممزق المهترئ وهم في أثرة يتصايحون:

- العبيط أهه.

يقذفونه بالطوب في قسوة غريبة وكأن دماءه السائلة من رأســه المفرطحة وقدميه الحافيتين تبعث بداخلهم نشوة غريبة مجنونــة تدفعهم إلى مواصلة التدافع والصياح وقذف الطوب.

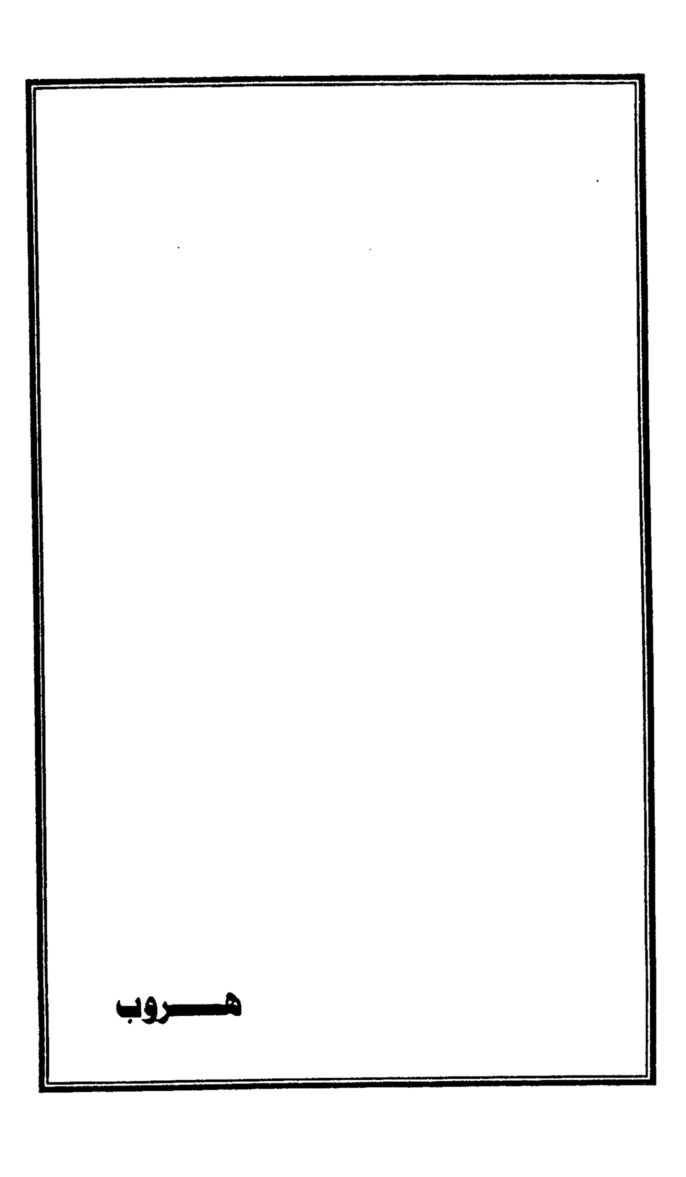
وامتزجت دماؤه الغزيرة بدماء الجرو الصغير، ثم مــا لبثــت أن تساقطت من علي ملابسه...

ويديه...

وقدميه ...

حتى وصلت إلي أرض الطريق.





هـــروب



الجو ... !!

عاصف غاضب ...

دموعي جافة صعبة المنال ...

أصمت.

أتساءل هل هي براعة الفارس أم ضعف الضحية؟

أم هي المفاجأة تلطمنا على غير توقع ؟

بت حائرا بين الآلام والأحزان فـــإذا اسـتكنت الآلام لا تكـف موسيقى الأحزان عن العزف المشوب بوشاح من الفزع المبهم.

وغدوت ألقى بنفسي ... أزجها بين الأنام لعلى أتوه في الزحــام أو تبتلعني الطرقات ... واندفعت بين جموع لا تحد العين مداهـا ... أبحث عن السلوى أو النسيان.

مددت عيني عبر خط الأفق.

ثمة طيور تحوم في السماء بلا هدف كأنها تبحث عن أعشاشـها الضائعة.

ولما اخفضت من بصري اصطدمت نظرات عيني به،
أحسست بمراجل الغضب تهتز في أعماقي، ولمحت كتلة الأحزان تنفجر في أحشائي.
تماسكت ... أنصت إلى صوته الهامس كفحيح الأفعى
قال مستفسرا:
- أجريح أنت ؟!
طويت مشاعري في صدري ودون أن يختلج في وجهي عصب أو تفضحني قطرة دمع قلت في لهجة جادة مقتضبة:
- نعم.
التفت إلى حاشيته متململا، تمعن في وجوههم القاسية المريبة قليلا ثم قال في لهجة مشوبة بالقسوة:
- إذن ابتعد.
قلت له وعلامات الدهشة قد طفرت إلى وجهي:
- لماذا ؟
- لكي لا تجرح مشاعري.
فقلت له بحده:
- ولكنك أنت الذي جرحتني.

وبغير اكتراث قال:

– أنا أم غيري المهم إنك جريح تسيل منك الدماء.

التفت بوشاح الصمت برهة وأنا مشدوه حائر ثم قلت له :

– عجبا أتتألم لمنظر الدماء ولا تتألم لحالي و لجراحي أنا التـــي باتت مباحة يسير على يديك.

فقال بلهجة آمرة ارتعدت لها فرائصي:

– كف عن الثرثرة ... إن منظر دمائك الحمراء القانية يؤلمني ... يصيبني بالدوار ... يثير غضبى.

فهمست له بصوت مرتعد:

– ولكن !!

– ولكن ماذا ؟! ... إنك أنت المسئول عن الألم الــذي اعــتراني بسبب رؤيتي لجرحك هذا ودمائك الغزيرة تلك.

وألقى إلى حاشيته نظرة كأنه يستمد منهم العون أو المقدرة علـــى مواصلة الحديث ثم استطرد في استبداد:

– ثم أنني فعلت مع الكثير من الناس مثلما فعلت معك بل وأقســى مما فعلت معك ومع ذلك ابتعدوا وتلاشوا في أحضان الصمــت

المطبق ولم يلوثوا مشاعري و أحاسيسي مثلما فعلت أنت بدمائك الغزيرة هذه وآلامك المثيرة تلك.

تمالكت نفسي وبعد أن لمحت جموع الطير وقد عاودت التحليق قلت له:

- وماذا تريد منى إذن ؟!

وصمت الثعلب المراوغ كمن يفكر فقلت له متخاذلا وأنا أعلم تماما أنني لا قبل لي بل أو بحاشيته وبعد أن أحسست بالجرح يفرغ فاهه متأوها وبالآلام تزداد وطأة :

- أتريد منى أن أبتعد ؟!

فصاح في وجهي:

- لا.

فقلت له وأنا أسبح في دائرة الألم:

- على أي حال فلن تبرأ جراحي وتسكن آلامي بمشاعر الضيق التي أصابتك .. وسأنصرف مبتعدا الآن .. هلا أمرتهم بأن يفسحوا لي الطريق ؟

فقال لي بإصرار:

- لا لن تنصرف.

قلت له بصوت خافت :

- ماذا تريد مني ؟! ألا تتركني لجراحي وآلامي ألا تســمح لــي بأن أبتعد ؟!

- كيف؟! .. كيف هذا وجرحك يؤلمني .. يفزعني ؟!

شعرت بنيران الغضب تلفح وجهي ولم أجد بدا من أن أقول لــه محاولا كظم غيظي :

- وماذا أفعل الآن ... أتريد منى أن أتحمل آلامك أنــت لأنــك غاضب لأجل كوني جريحاً تسيل الدمــاء منــى ؟! ... أم كــان من المحتم على ألا أخبرك أنك السبب؟

لمحت ملامح الضيق والسخرية تتســرب إلــى أوجــه حاشــيته المظلمة الغليظة وسرعان ما ضجوا بالضحك المــزري ولكنــه أخرسهم بنظراته التي لاحت منه شذرا ثم قال :

- وهل تعتقد أنني لم أكن أعلم ؟

في اندفاع قلت :

- إذن فأنت تعلم ولكن لا ترى.

وتطلعت إلى وجه الشمس القرمزي الغارب .. كانت تنسحب فــي رفق تتسلل عبر خط الأفق .. بينما تهطل الأمطار بغزارة.

أبحث عن الطيور ... تاهت الطيور ... ضـــاعت كـل الطيـور تلاشت تماما من كبد السماء.

وتعالت صرخات الألم بداخلي تحتويني .. تعتصرني فـــأخفضت من وجهي متوسلا :

-أنا آسف ... آسف جدا.

لوى شفتيه، ذوى ما بين حاجبيه الكثيفين، قال:

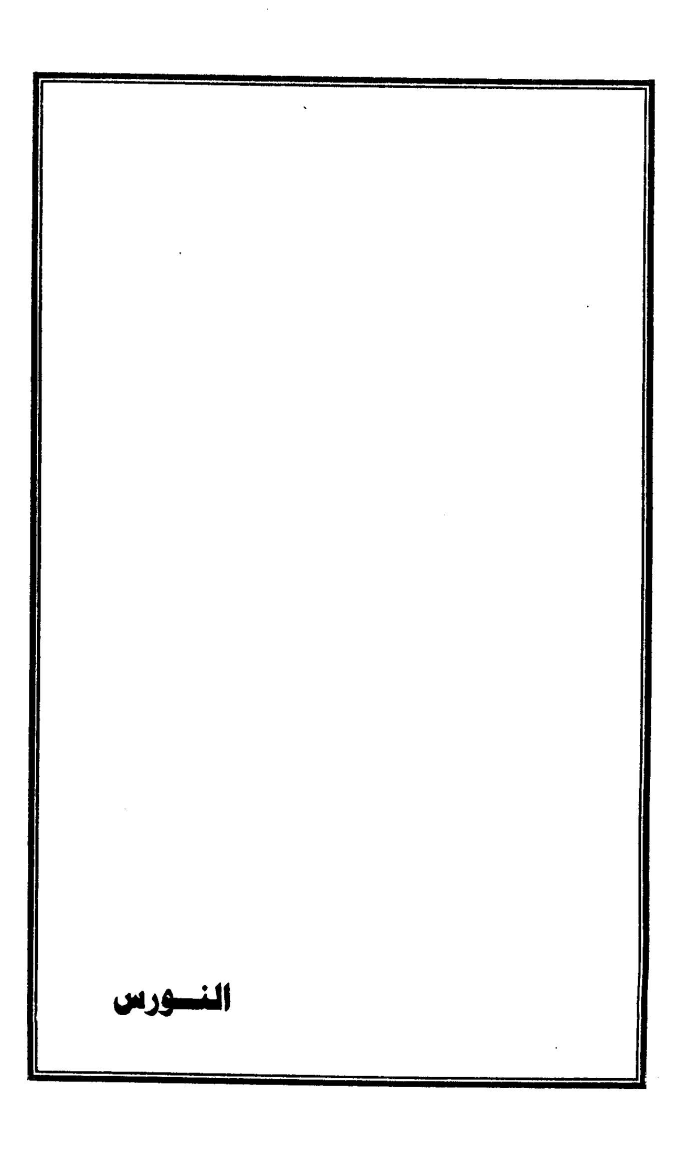
- وبماذا يفيدني أسفك؟!

وشملتنا لبرهة أحسبها دهورا غاشية من ســكون مطبــق جعــل يتطلع فيها إلى وجهي الذائب ألما وعذابا.

ودوت بغتة نعقه كئيبة لغراب أسود يبدو أنه قد ضل الطريق.

بعدها قال :

-لابد من معاقبتك.


النـــورس



الكون فسيح ... غاشية السكون رهيبة .. السماء ممتدة، مترامية في وجود غير متناهي الحدود، الشمس وشيكة الظهور .. تطفو فوق ستر الظلام .. تنساب في رفق من أعماق يم واسع سحيق، رماله ذهبية، أمواجه هادرة متتالية.

في الأفق لاح طائر ضئيل يضرب بجناحيه أجواء السماء، وأمام جبال الماء الهادر، جال ببصره فيما حوله .. على بعد خطوات منه لمحه طائر النورس، لمحه وبريق التحدي يلمع في عينيه .. ابتسم النورس .. همس في أعماقه ساخرا:

- طائر ويتحدى الموج!!

***

غضب البحر .. تبدد الصمت .. صخب الموج، تلاطم في شدة، اضطرب الطائر، استبد به الذعر ، ألقى بنفسه المرتعدة بعيدا عن الماء .. ضحك النورس ضحكة جلجلت في الآفاق ولكنها سرعان ما تلاشت حين لمح الطائر وقد عاد إلى البحر أشد مراسا.

كانت الشمس ترنو إلى الطائر وقد تلفعت ببضع سـحب دكنـاء بينما الرياح تتأوه أو تئن وفى خضم الأحداث كانت تتهالك خيوط الصمت وتتهاوى حلقاته المفرغة.

***

طفق الكد اللعين ينشب مخالبه في جسد الطائر الضئيـل حتـى خارت قواه تماما وفغر اليم فاهه السحيق.

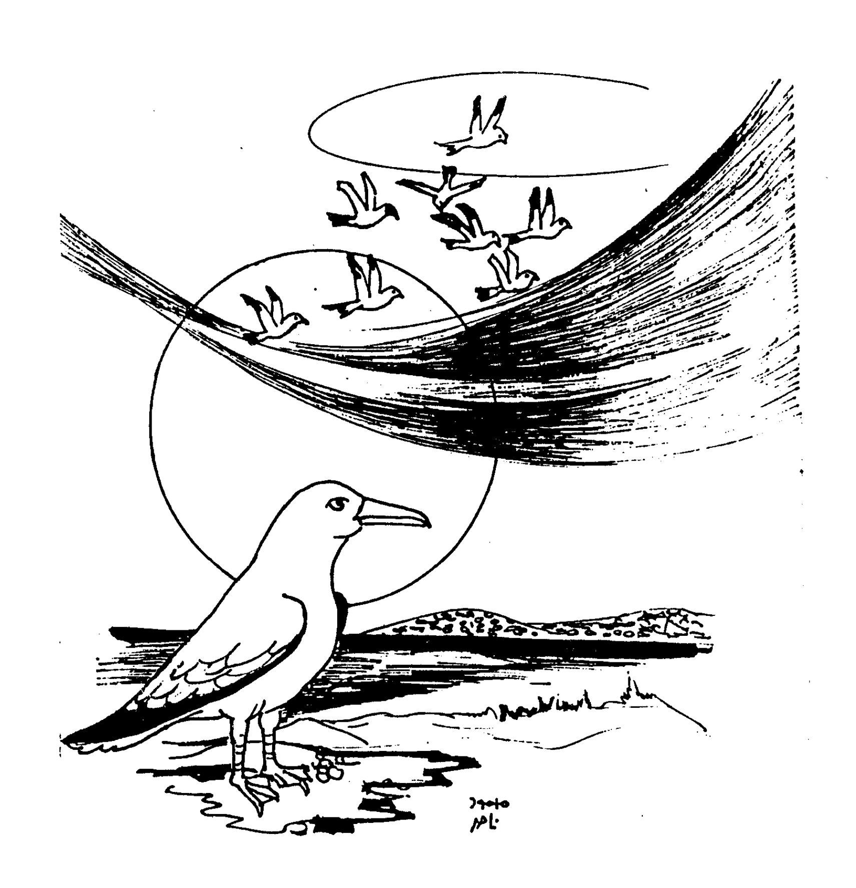
طوقت السحب الدكناء عين الشمس فحجبتـها عـن الظـهور، وتعالى صوت الرياح فبدا كصراخ طفل حزين.

بينما النورس يرنو إلى المشهد بعينين مرتجفتيـن قـد تحولتـا من السخرية إلى الدهشة.

وبتأثر يتطلع إلى الطائر الذي ما لبث يضرب الماء بجناحيـه .. بينما يسحبه اليم .. يجذبه إلى القاع العميق.

***

كفت الرياح عن العويل .. انقشعت كتل السحب الدكناء .. عـاد الصمت يحلق من جديد .. ضحك النورس، لكن ضحكته الثانيـة لم يصدر لها أدنى صوت حين لمح جموعا من الطـير لا تحـد



العين مداها، ولبثت الوفود تترى تحط فوق رمال البحـــر حتـــى ارتفع الضجيج فبلغ عنان السماء.

الساحة ليس بها إلا اليم وأسراب الطير الوفير.

المعركة شرسة، تدور رحاها.

طائر النورس يرقب المشهد وينطوي على نفسه .. لم يضحـك .. لم يصرخ .. فقط كان يرقب الموقف.

اليم يحكم قبضته حول الطير، يحتوى جموعه الغفـــيرة، أشـــلاء الطير تتزايد طافية فوق سطح الماء.

النورس لا زال ساكنا، على وجهه الدقيق ترتسم بضع علامـــات متضاربة مختلطة من الدهشة والسخرية وثمة شيء جديد يعتمــل في داخله.

***

وتعالت صرخات الريح تطوق الطائر الأخير تحيط به من كـــل جانب .. تجثم على أنفاسه .. تخنقه .. تبدده .. تسحبه إلى القـــاع العميق.

وغرق الشط في لجة من سكون .. وعاد الصمت المطبق يرســل حلقاته المفرغة من جديد.

***

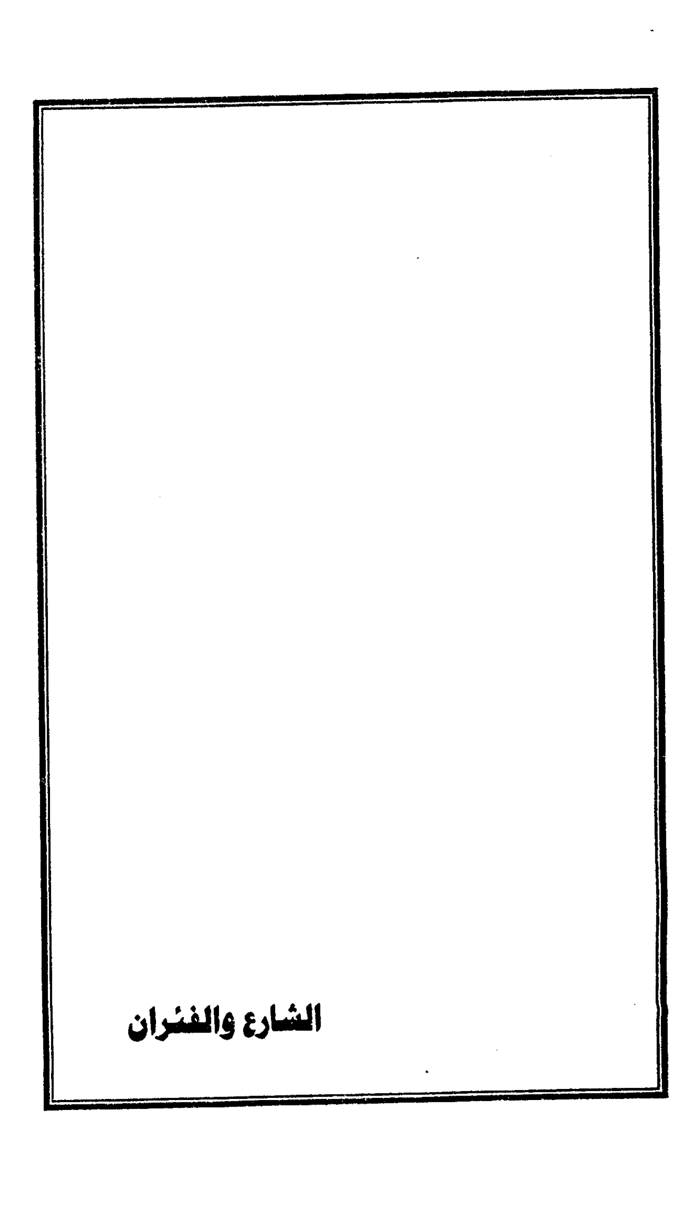
مع لون الشمس القرمزي الغارب، كان النورس هنـــاك، يشــرد ببصره إلى أشلاء الطير، يشعر بغصة في حلقة، لكنه ســـرعان ما رفع عينيه يتطلع إلى وجه الشمس لتبرق في عينيـــه نظــرة جديدة لم تتراء للبحر من قبل.

غضب البحر.

صخب.

تعالى هديره المرعد.

ولكن النورس لم يرتعد، لم يجبن أو يتراجع عمـــا عقــد العــزم عليه.



الشارع والفئران

الشارع المشتعل بالصخب والضحكات.

والبيوت العتيقة.

والحواري المتشعبة.

والأبواب غير الموصدة.

وسيدة صغيرة تسمع صوت غناء رجلها وهو يأتيها من بعيد.

كانت السماء ملبدة بالغيوم وصاحب الحافلة السوداء يذرع الشارع جيئة وذهابا يبحث عن المفاتيح التي ضاعت منه ... وفى المطعم المواجه كان الرجال يتصايحون، يتوافدون، يتكاثرون، يســـحبون قطع اللحم المشوية وتداعب أصابعهم لفـــائف التبـــغ المحشـــوة، يملأون الأكواب ويقذفون ببقايا الطعام.

العطش، والأجساد المشتعلة، والموسيقى الصاخبة، وهى جميلـــة صغيرة تبحث عن رجلها الوحيد !!!

سألت أحد رواد المطعم:

- هل رأيت رجلي !؟

نظر إليها مليا ثم ابتسم ابتسامة خبيثة ولم ينبس.

نزعت نفسها من داخلها واندفعت إلى الشارع الضيق.

البرد قارص.

والإضاءة خافتة.

وقصف الرعد يهز أعماقها هزا شديدا وفى الجانب المظلم أولئك الصبية الذين يلعبون بالكرة، وصاحب المطعم يتفقد أحوال زبائنه ثم تمتد يداه لتسحب مدية حادة ويعلو صوته الجهوري مناديا مساعده الصغير الذي ما فتئ يحاول إشعال فحم الشواء، يبعثر الريش المتسخ بالدماء ويملأ الشارع ببقايا العظم والأحشاء الداخلية وحبات الأنرة المبتلة.

وهى وحيدة ... جائعة ... عطشى ... ترتجف من البرد.

سألت بائع اللبن العجوز:

- هل قابلت رجلي ؟!

نظر إليها في دهشة وكأنه لم يسمعها وطفق يدور على البيوت حاملا قسط اللبن فوق دراجته المتهالكة وكلبه الهزيل ينبح في أثره.

جذبت أحد الصبية ممن يلعبون الكرة .. صاحت في وجهه:

- أين رَجلي ؟!





نظر إليها الصبي في لا مبالاة ثم ما لبث أن دلف ثانية إلى الجانب المظلم من الشارع.

انتبه إليها صاحب المطعم .. ملأ الشارع بضحكاته ونظراته التي دوما تلتهمها .. كان يسعل وجسده كله يهتز ثم يبصق على الأرض بعد أن يغشى الدخان المنبعث من الفحم أنفه ووجهه كله.

الجو عاصف مرعد.

المرأة صغيرة، جميلة، حزينة.

الموسيقى الصاخبة تنبعث من المطعم.

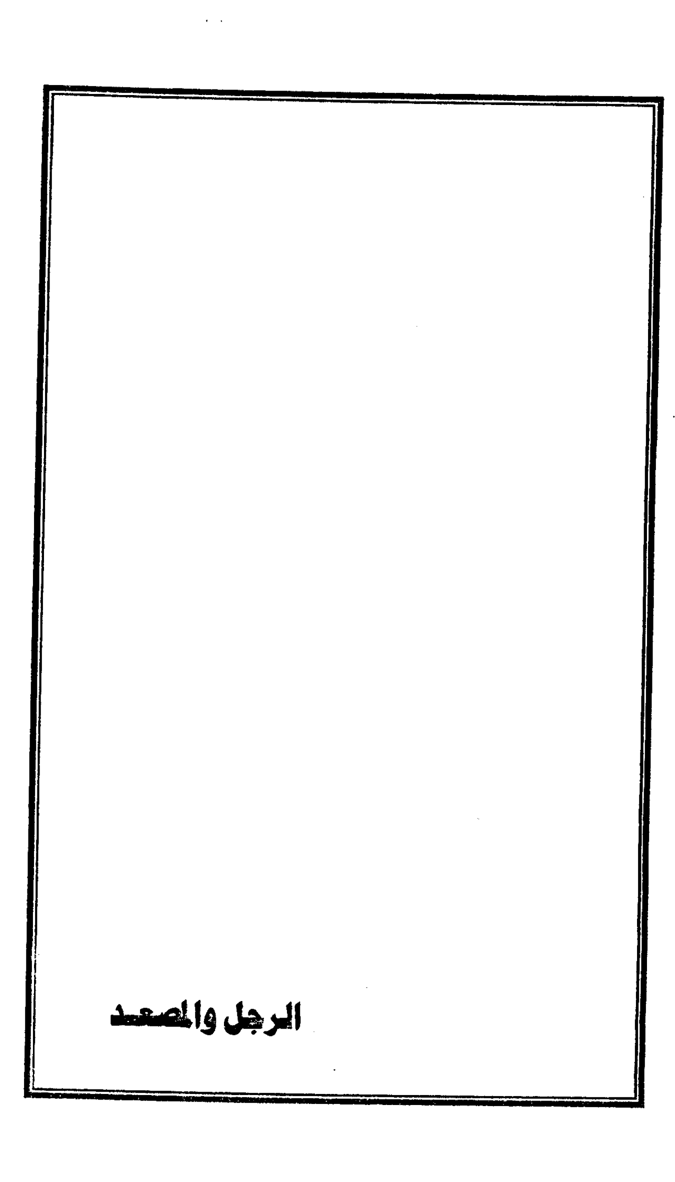
صوت ضحكات الرجل الممزوجة بغناء رجلها يأتيها من بعيد، وصاحب الحافلة السوداء يجذب مقبض بابها بقوة ... اقتربت منه ... حاولت أن تسأله عن رجلها صاحب الصوت الجميل.

بدا لها مخيفا رهيبا كوحش هائج .. لملمت نفسها وابتعدت على عجل والجوع يعوي داخلها والعطش يلهب جوفها وصوت رجلها وهو يغني يضعف رويدا، ونصل السكين في يد صاحب المطعم يعكس ضوء كشافات السيارات المبهر قبل أن يهوى بها على رقبة الإوزة ثم يلقي بها إلى مساعده ليقلب جوانبها المتبلة فوق قطع الفحم الملتهبة.

كانت الضجة المنبعثة من صاحب الحافلة شــديدة بينمــا أولئــك الصبية لاعبو الكرة ينظرون إليه في غير اكتراث وهــو يــهوي على باب الحافلة بضربات عنيفة متلاحقة، وبائع اللبن يتحرك في إعياء واللبن يتساقط منه بغير اكتراث، والكلب الصغير يلعقه قبل أن تمتصه رمال الشارع المختلطة بدماء الطيور ثم يعود فيلعــق مؤخرته.

وهى تجلس على الأرض من الإعياء، وقد اقترب منها صــاحب المطعم .. كان يتفحصها بعينين حمراوين مريبتين، وهى تتطلــع إلى كلب بائع اللبن الهزيل.

كان يهز ذيله في سعادة بالغة ويرفع وجهه إليها وهـــى تحــاول جاهدة أن تستجمع قوتها .. أن تربت فوق رأسه .. أن تسأله عـن رجلها وعن سر صدى غنائه **المنبعث**.


الرجل والمصعد



اليوم .. عاصف ممطر.

الساعة .. الثانية عشرة.

الظلام .. دامس صامت إلا من صوت العواصف والمطر.

منطقة العجمي.

الطابق الثامن.

(١)

- أحقا يوجد بمنزلنا أشباح !؟

ارتبكت قليلا ... ابتلعت لعابي الجاف في حلقي .. قلت له في حدة :

- مَنْ أوهمك بذلك ؟

بعد أن انصرف شهاب دون أن ينبس صرخت في وجه زوجتي قائلا :

- ألم أنصح والدك مرارا بعدم إيهام ابني بأشياء تافهة مريبـــة لا أساس لها من الصحة .. أم يريد أن يضمه هو أيضا إلـى جماعة الشبان الروحانيين !!

نظرت إلى زوجتي نظرة طويلة متفحصة إياي وكأنها تتعجـــب مني أو تحتقرني ثم قالت لي :

- ان أبى لا يكذب أبدا وأنت تعلم أن كل ما قاله لإبنك صـــدق وإن كنت تخاف على ولدك فمن الأولـــى أن نغـــادر هـــذا المنزل الكئيب المتطرف البعيد عن العمران.

- هكذا ... نغادر المنزل !!!

- العمارة كلها قد فرغت من السكان عدا نحـــن وصـــاحب البيت والبواب.

- لا شأن لنا بأولئك الحمقى.

- هم أم أنت ؟!

هكذا قالت بصوت هامس ولم تكمل كلماتـــها فقلـــت لـــها بصوت قد امتزج بالحزن والأسى وقد علت نبرات صوتي :

- لن تتغيري أبدا.

- يا عزيزي كل ما هنالك أن البيت مسكون ولقد تعرضـــت أنت نفسك لمواقف كثيرة مريبة.

- ألم أقل إنه الرعد وصوت العواصف وأشياء أخرى وهميــة من صنع خيالك.

- ولكن العالم الآخر أتنكر وجوده .. أتتذكر السيدة العجــوز التي كانت تشغل الشقة المقابلة لشقتنا وما أصابــها وكيــف أنها واجهت أشياء أودت بها في النهايـــة إلـــى مستشــفي الأمراض العقلية.

وبدأت زوجتي تشرح لي بطلاقة وكأنها تلقى إحـــدى روائـــع شكسبير أو تعزف سيمفونية من سيمفونيات بيتـــهوفن بعضــا من علوم الغيبيات ولكنى قاطعتها قبل أن تستطرد قائلا:

- كيف لسيدة عاقلة مثلك أن تصدق تلك الخرافات والأكاذيب ثم أن السيدة العجوز ليست أول من أصيب بالجنون.

فقالت لي زوجتي في انفعال شديد:

- إذا فأنت تتهمني بالتخلف.

وبعد برهة من الصمت قالت لي في تحدٍ بالغ:

- إذا لماذا لا تستعمل المصعد ونحن في الطابق الثامن وكـل يوم تقطع رحلة طويلة من التعب والإرهاق !؟

بالطبع لم استطع أن أجيبها فكان سؤالها هـذا بمثابـة إصبـع الديناميت الذي انفجر بقسوة في كل أفكاري ومبادئي.

حاولت أن أنهى تلك المناقشة الحامية هاربا من سؤال زوجتـي ذلك الذي لا أعرف له أجابه فقلت لـها متظـاهرا بالانفعـال الشديد:

- حقا إنك لمتخلفة.

(٢)

انطلقت إلى الخارج لا ألوى على شئ ولكنني بعدما فتحت بـاب الشقة لاحظت المصعد...

تذكرت كلمات زوجتي...

المصعد كئيب...

كئيب كظلام الليل ...

تلفت حولي في اضطراب باحثا عن مهرب.

اصطدمت نظرات عيني بشقة السيدة العجوز.

شعرت بخوف شديد نابع من أعماقي.

اندفعت فورا متدحرجا على السلم.

(٣)

في الخارج ...

الشارع مظلم حزين والرياح تعصف بصوت كئيب ومن خـلال النافذة المواجهة لمحت الرجل العجوز حماي جالساً ومن حولـه جماعة من البشر - مكوني جماعة الشبان الروحانيين - انطلقت ضحكاتي مجلجلة في الأرجاء عندما لاحظت أن معظمهم قـد تجاوز مرحلة الكهولة إلا قليلا ولكنى ابتلعت ضحكاتي ودفنتـها في أعماقي عندما تطايرت بضع كلماتـهم لتتدلـع فـي أذنـي ولتهوي مباشرة في أم رأسى. (حضرت .. نعم حضـرت .. شريرة .. روح شريرة .. الأمر خطـير) شـعرت بـالخوف والارتباك يعصفان بي مرة أخرى فاندفعت مبتعـدا إلـى عـم عباس البقال طلبت منه علبه سجائر ومشط كبريت .. نظر إلـى متفحصا إياي قليلا وقد لف يديه حول خصره ثم قال لي مشـيرا بيد ضخمة غليظة وقد برزت عيناه أمامـه ممتلئـة بالجشـع والاستغلال.

- معك ...... جنيه.

- لماذا؟

- العلبة بـــ ... جنيه والكبريت يا سيدي من عندي.

نظرت إليه في ضيق وقرف شديد ثم صحت في وجهه:

– لا أريد شيئاً وانصرفت عائدا إلى المنزل ولكنه عاد مناديـــا بصوت جهوري قد أمتزج بالزوابع محدثا ضجة ورنينا خاصـــا قائلا:

- الكبريت يا بيه.

نظرت إلى السماء فوجدتها خالية من النجوم اللامعة وبدا لـــي القمر متواريا خلف الغيوم القاتمة وكأنه لهب شمعة في مثواهـــا الأخير.

لاحظت بضع قطرات من المطر تنساب في هـــدوء فـاندفعت إلى داخل العمارة محتميا من الأمطار.

(٤)

السلم مظلم سوى من شعاع خافت نابع من مصبـــاح صغـــير أمام حجرة البواب.

أسئلة سريعة دارت في مخيلتي:

- ما معنى الخوف ؟

- ممَنْ أخاف ؟

- أحقاً توجد أشباح؟

مرة أخرى تذكرت كلمات زوجتي التي دفعت في نفسي بسؤال جد خطير وهو:

- لماذا لا اقتحمه؟

- ولكن كيف ؟ .. كيف ولقد قتل به آخر شخص حاول استعماله !؟

بدا لي أنني أسمع دقات قلبي المتوالية السريعة وبغتة انطفأ ذلك المصباح الصغير فاندلع الظلام إلى أرجاء أعماقي ليصبح المكان حالك السواد وعلى حين غرة رأيت أمامي شيئا غريبا يلمع من بعيد فتسمرت في مكاني رعبا وهولا.

سخونة شديدة في وجهي .. عرق غزير يتفصد من جسدي.

دقات قلبي تزداد وتزداد ويزداد معها اقتراب ذلك اللامع المخيف.

حاولت جاهدا أن أكتم أنفاسي.

وفي حذر شديد وقف إلى جواري ذلك الشئ اللامع.

إنه ... إنه قط ... نعم قط ابني شـــهاب بعينيـه الخضراويــن اللامعتين.

لعنته في الحال أشد اللعنات .. أنفاس عميقة ســحبتها بعــد أن حمدت ربى .. ولكن الآن المشكلة ازدادت تعقيدا حينما وجـهت لنفسي تهمة الجبن، منذ دقائق قلت لابني أنه لا توجد أشباح ثـم أعارض زوجتي متهما إياها بالتخلف ثم تحدث بي هرة صغيرة كل هذا !!!

لمعت في عيني نظرة التحدي.

صرخت لأمزق وحشة الصمت المطبق.

- ليس هناك أشباح.

هكذا أعلنتها صريحة مدوية لعلى أهز بعنف أســتار الخـوف الملتف كالأخطبوط حول عقلي ولأذهب لأبعد من ذلك بقـراري اقتحام ذلك الكئيب المسمى بالمصعد.. فتحت الباب في صمــت وشجاعة أفقدتني أن ذاك صوابي وما أن كدت أضع قدمي فــي المصعد حتى دوى صوت الرعد يجلجــل ويشــتت أوصــالي وبدأت أسمع أصواتا غريبة مهيبة تحذرني وهمســات لنســوة تبكى في نشيج حزين فقلت لنفسي لعلي أطمأنها:

- انه الوهم ... ثم أنني متعب كيف لي أن أصعد على قدمـــي ثمانية طوابق !؟

- ألم أعلنها من قبل أنه ليس هناك أشباح !!!

(٥)

بعد أن أغلقت الباب بحرص وهدوء شديدين حاولت جـــاهدا أن أتفحص جسم المصعد من الداخل فهو مصنوع من طراز نـــادر جدا ولكن كيف لي بالرؤية في هذا الظلام الحالك.

وجعلت أضغط مفاتيح المصعد ولكن عبثا لقد فشـــلت محاولـــة تحريكه.

الظلام مازال حالكا ...

يدي تتحرك بطريقة آلية ...

تكررت وتعددت المحاولات لتحريك ذلك الملعون ولكن كلـــها ذهبت هباء.

تبينت أنني وقعت في قبضة ذلك المصعد الرهيب، فأنا رهيـــن الظلام والصمت والمصعد.

هرشت فروة رأسي بعنف وكأنني أعبث بأعماق مخي محـــاولا تنشيط خلاياه.

شعرت بحالة ذعر شديدة.

قلبي توقف عن الحركة (هكذا تخليت).

وضعت يدي بسرعة في جيبي فلم أجد أي عود ثقاب، أخرجتها بحرص مفرط فوجدت سلسلة مفاتيحي عالقة بها.

كان بها نموذج بلاستيكي مصغر لهيكل عظمى.

تحسسته في رعب قاتل كأنني أراه لأول مرة ثم قذفت به بعيـــدا بقوة فاصطدم بشيء أحدث صوتاً مفزعاً.

يبدو أنه أحد مفاتيح المصعد التي أضاءت أرجاء المكان بشـــعاع خافت كسا المكان كله بلون أحمر خفيف فبدت لي جميـــع أزرار المصعد واضحة شئ ما.

انحنيت لأخذ سلسلة مفاتيحي مرة أخـــرى فسـقطت نظـــارتي الطبية.

نظرت بجانبي فلمحت شيئاً غريبا بشعا..

إنه ... إنه رجل!!!

رجل ذو شكل رديء ومن خلال نظـــرات الرعـــب الســـريعة الزائغة تبينت أنه ذو شعر أبيض لامع.

امتلكني رعبا قاتلا، سمعت فجأة صريخـــا وعويـــلا، ســـمعت نشيجا ونحيبا، سمعت دقات الساعة فخيل إلى أنها دقات علـــى طبول.

حاولت التظاهر بالشجاعة وقلت له:

- مَنْ أنت ؟!

لم يجبني ولكنه اكتفى فقط بتغيير ملامح وجهه المفزوع.

تحركت للخلف قليلا حتى أبتعد عنه فوجدتني أهشم مـــا تبقـــى من نظارتي ... فأحدثت صوتا مفزعا كـــان كفيـــلا بانـــهياري على الأرض لأسقط لتوي مغشيا علي.

(بعد قليل)

شعرت بسخونة شديدة في قدمي.

حاولت الوقوف فاختل توازني لأجدني أصطدم بمرآة موضوعة أمامي كانت تعكس صورتي.

كدت أضحك لولا قدمي التي بدأت تؤلمني بشدة.

وفجأة تحرك المصعد إلى أعلى.

يبدو أنني قد حركت أحد المفاتيح.

تذكـرت كلمـات صديقـي الطبيـب النفسـي والبـاحث د/ همام عبد الباقي .. وكيف أن الإنسان أحيانـا يخـاف مـن أشياء وهمية لا وجود لها وكيف أن خيالـه يصنـع الأشـكال والأصوات وربما الآلام أيضا.

(٦)

أثناء ذلك كانت زوجتي في حيرة شديدة فهي لا تدرى أين أنـا وحينما استبدت بها الظنون القاتلة اندفعت إلى الخارج وفي تلـك اللحظة كنت أنا خارجا من ذلك المصعد الملعون .. أرفع قدمي بصعوبة شديدة وشعري يلمع كله على ضوء شمعة كانت فـي يد زوجتي .. تقابلنا في منتصف الردهة بين المصعد والشـقة.. قالت لي بعدما تجاهلت لمعة شعري الذي ازداد بريقـا بعدمـا أبيض كله: •

- كيف تفعل ذلك ؟! كيف تستعمل ذلك المصعد الخطير !؟

هكذا قالت بحدة وتوتر شديد فقلت لها في فخر ونشوة انسـوني آن ذاك كل آلامي وكأنني طاووس كبير يستعرض جمال ريـش ذيله أمام أنثاه.

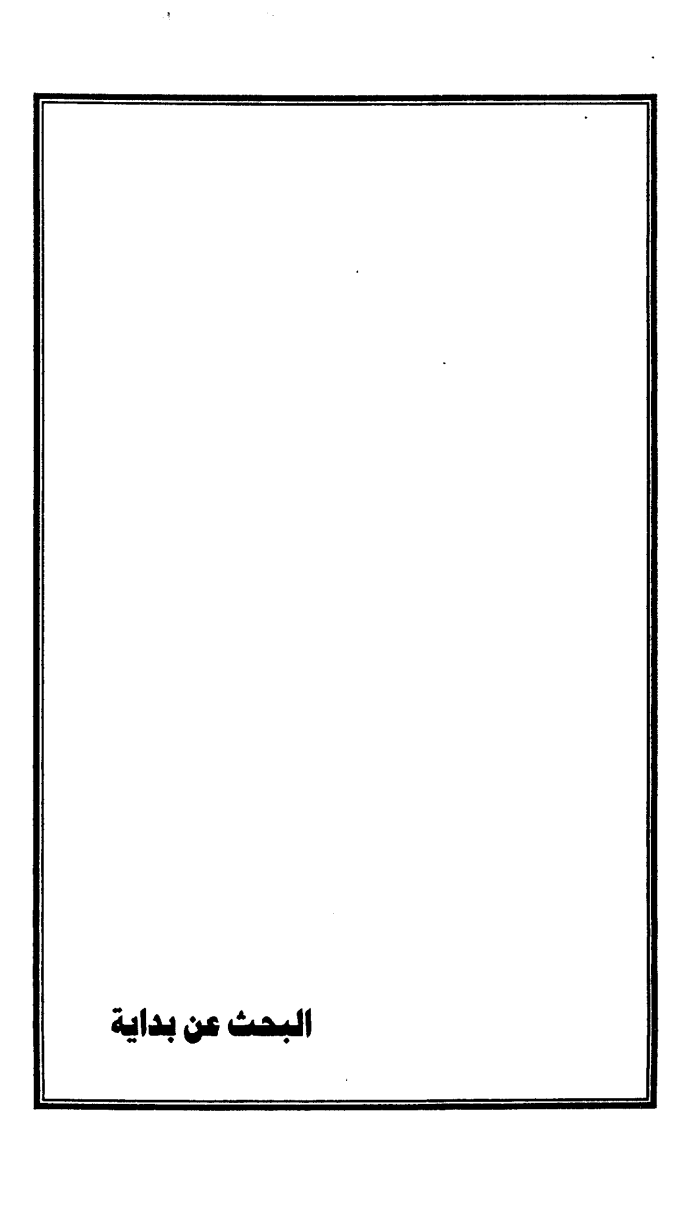
قلت لها:

- لقد فعلت ذلك حتى أخلصك من كل أوهامك ومخاوفك وكما ترين استعملت المصعد ولم يحدث لي شئ فقط أصبت بعدة كدمات في قدمي من زجاج النظارة التي تهشمت.

ولكنها صرخت في وجهي قائلة:

- إن الكهرباء **مقطوعة**!!!




البحث عن بداية



لم يقف قبالتي تماماً ولكنه بعد أن تطلـــع إلـــي وجـــهي اكتفـــي بتساؤله المعهود:

- ألا تتذكرني؟

كانت الإضاءة خافتة.. بينما الموسيقي الكلاسيكية تصـــدح فـــي أرجاء المكان... قلت في وجل ودهشة:

- أنت !!

الحق لم يحدث هذا مرة واحدة أو مرتين بل حدث كثيرا خـــلال الحقبة الأخيرة... أن التقي به... وفي كل مرة كان يسألني سـؤالا واحدا لا يتكرر:

- ألا تتذكرني؟

وفي كل مرة كنت أبادر بصياغة استفسارات واسعة لعلـــي أدرك أو أفهم.

همست في صعوبة:

- أريد أن... أن..

بعد أن تطلع إلي ساعة الحائط القديمة وقـــد تجــاوزت الثالثــة صباحا تقدم خطوتين إلي الأمام ثم همس:

- ألا زلت محتفظا بتلك الساعة العتيقة التي تقدم حينا وتؤخـــر حينا أخر !؟

في رضوخ مشوب بالخجل.

- نعم لا زلت...

خشيت أن يتخلى عن هدوئه... قال في حزم:

- أحسبك الآن قد علمت أن الأيام حتما تمضي.

- كل شئ لابد أن يمضى.

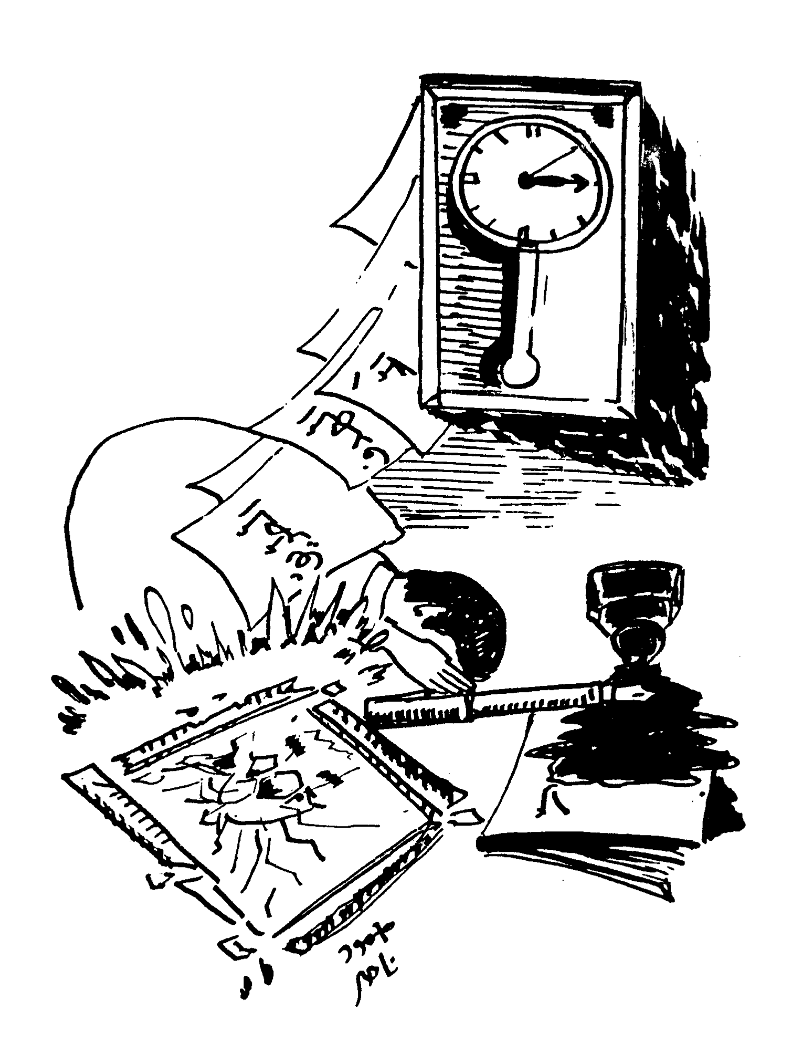
لدقائق خلتها دهورا يسود الصمت المطبق أرجاء الحجرة المغلقــة تماما بينما يحدق إلى صورة شهاب ابني الوحيد ... كانت معلقــة على الحائط المواجه له.

بعد أن استجمعت كل قواي أهمس:

- أريد أن أكتب.

بغتة يستدير إلىٰ ... يفزعني ... يصيح بي:

- ماذا قلت ؟



أقترب منه، أختلس بعض النظرات إليه، أعرفه، ملامحه مألوفـــة عندي، مطبوعة في ذاكرتي، في أعماقي.

ورغم خوفي المفرط أحسست بعاطفة هائلة نحوه.

في توسل:

- جملة.. كلمة .. حرف.

- لا تحاول... لن تكتب.

أتداعى... أتهاوى عند قدميه.

أرفع رأسي في صعوبة أتساءل في أسى :

- لماذا ؟

بلا حراك:

- ما مشكلتك ؟

- مشكلتي !!!

- مشكلتك أنك بلا مشكلة.

- ربما.

- أتبحث عن المشاكل؟

- أبحث عن هدف.

- وطريقك !؟

- ليس لي ثمة طريق.

- إذن كيف تسير ؟... كيف تمضي ؟

- أنا أبحث عن بداية.

- ولكنك في نهاية الطريق أو تكاد.

- ليس هذا طريقي.

في سخرية:

- هكذا.

- في الماضي قالوا لي هيا تحرك هذا هو طريقك.

- وتحركت !؟

- مثل الأخرين.

في تمهل:

- الآخرين.

- أرجوك... أتوسل إليك... أريد أن أكتب

يتجاهلني متسائلا:

- وظللت مثل الأخرين هكذا حتى بلغت نهاية الطريق

في رضوخ:

- تماما.

بعد برهة من الصمت والإطراق بينما لازلت راكعا عند قدميـــه

يهمس:

- والآن.

أرتفع بوجهي قليلا:

- الآن أريد بداية.

- بداية.

- بداية جديدة أصنعها بنفسي .

- ماذا تروم ؟

أرتفع بوجهي أكثر.. تتغير نبرة صوتي:

- الحرية.

في سخرية:

- الحرية.

- نعم.

في هدوء:

- الحرية... أتفهم معناها ؟!

- أن تكون لي الحرية في اختيار والدي.

- أهذه فقط الحرية !؟

- هذه فقط البداية.

- وماذا بعد البداية.

- أن تكون لي الحرية في اختيار المكان.

- ... !!

- في اختيار الزمان.

ينظر في حدة إلي صورة شهاب المواجهة له .. يصيح:

- وابنك شهاب.

تسقط الصورة من علي الحائط...

تتهشم ...

تتعالى الموسيقي الكلاسيكية العميقة ...

تخترق أوصالى ... يعتريني خوف هائل .. يتسرب الحزن إلـــي داخلي ... أدفن رأسي بين راحة يدي ... أرفع وجهي لأصيح به قائلا :

- لقد مات شهاب منذ أمد بعيد.

في قسوة شديدة:

- ألا تريد استبداله ؟!

في جرأة مقرونة باللطف.

- أنت لا تفهم.

- أفهمني.

- أنا لا أبحث عن الجيد أو الحسن ولكني أبحث عن طريقي.

- أهذه هي الحرية إذن؟

- ربما يكون لي الحق أيضا في اختيار وظيفتي.

- فقط.

- وزوجتي.

- ماذا بها ؟!

- ربما لو كانت أجمل وألطف بعض الشيء.

- وماذا تريد أيضا!؟

في إطراق حزين.

- أن أكتب.

يتمهل قليلا.

- انهض.

أنهض في بطء.

في قسوة ينتزع ساعة الحائط القديمة .. يلقي بها أمامي في عنف .. ترسل عدة دقات رتيبة.

يعطيني كراسا ضخما وقلمَ رصاصٍ !!

أمسك بالقلم في دهشة ... تتوقف الموسـيقي الكلاسـيكية عـن العزف... يعتريني خوف مروع ... تنخفض الإضاءة ... تكـاد تنعدم.

- هيا اكتب.

أحاول في اضطراب التطلع إلي ملامح وجهه...

أفتح الصفحة الأولي من الكراس... أتطلع إليه ثانية ...

يصيح بي:

- لك الحق الآن أن تكتب.

أضطرب ... يهتز القلم بين أناملي المرتجفة ... تلطمني كلماته:

- الحرية !!

الهدف !!

الطريق !!

هيا اكتب .

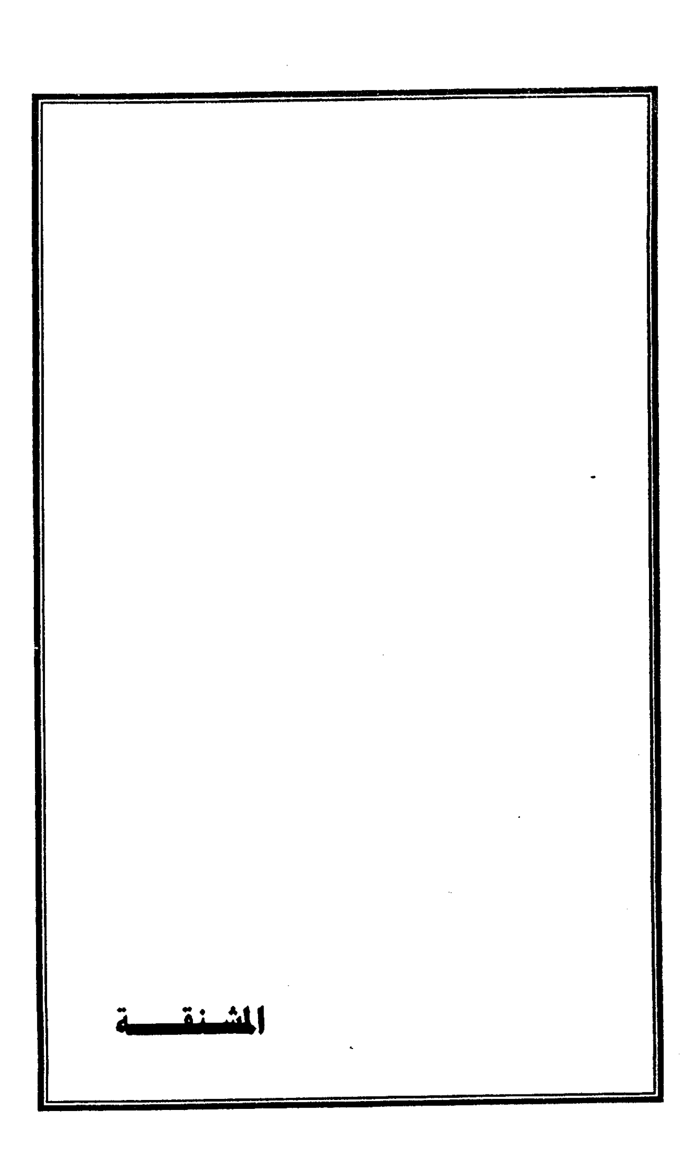
تزداد حدة انفعالي ... أحاول أن أحرك يدي ... يسقط القلم مــــن

بين أصابعي... أتهاوى خلفه.. أتداعى ساجدا.

أهمس بصعوبة مقرونة بالخجل :

- لا أعرف.




المشنقة



تحسس عنقه في رفق ...

انتفض، ارتجف، اضطربت يداه، اهتزت وهو يشعل الســـــيجارة الأخيرة، خنقه الدخان ... سعل بشدة ... بصـــــق دمـــا ... ألقـــى بالسيجارة مشتعلة .. ما من شئ قط يمكن أن يتذكره لا يؤلمه.

شوارع مشتعلة بالحركة والصخب ...وطرقات حلزونية متداخلـــة ... وأبنية شاهقة تحجب ضوء الشمس عن النفاذ.

وفتيات متسكعات في ثياب ملونة .. قصيرة أو ضيقة.

وأتوبيس مكتظ عن آخره بالناس.

ورجال ماضية تلهث من فرط التعب... وشيوخ علـــى المقـــاهي ضائعة... وطفل حزين تائه في الزحام.

تدافعت الأفكار تضربه بغير انقطـــــاع... تنســـاب... تتســـل... تتوغل إلي دهاليز عقله وتتدافع معها الصور مختلطة، ممتزجـــة، ملونة أو مبتورة مشوهة.

الليل الساحر الغامض...

والنيل العميق ...

والقمر..

وفتاته الجميلة.

همست في رفق بعد أن نزعت خاتم الخطبة الفضي من إصبعــها الدقيق:

- حبيبي قل لي وداعا.

ولم ينبس... فقط كان يشتعل كمدا وعجزا.

- أرجوك لا تغضب.

ونظر إليها بعينين ساحقتين فهمست:

- لننصرف كصديقين.

- وهمس بعد لأي:

- الصداقة أم الحب؟

فانبرت قائلة:

- الحياة.. الطعام .. الملبس.. المسكن.. الأهل.. الناس.

صفق بشدة...

نظر إلي دخان السيجارة المشتعلة.

كان يتصاعد إلي سقف الحجرة في حلقات لولبية.

نزع أحد حبال الغسيل الممتدة داخل الغرفة.

جذب مقعدا قديما متهالكا، صعد فوقه، أحكم من ربط الحبل فـــي سيخ صدئ مدلى من السقف، ألقي بنظرة وداع ســـريعة علـــي حجرته المتواضعة.

كانت عارية البلاط ... متسلخة الطلاء ... خالية من الأثاث عـدا سرير نحاسي قديم ومرتبة كادت تبلي من فرط القدم.. ثمة كتــب مهلهلة الغلاف موزعة بين الأركان.

في توجس دلف برأسه داخل المشنقة المدلاة... داهمتـــه بعــض الصور ...

احتوته تماما...

المنزل واسع عريق ينم عن ثراء بالغ، الجدران محلاة بلوحــات لكبار الفنانين، والأثاث فاخر ذهبي الطـــلاء، والتحــف نحاســية عتيقة تملأ الزوايا والأركان.

- ماذا تريد.. ؟

هكذا هتف به أخوه وهو علـــي الدرجـــة الأخـــيرة مـــن الســـلم الحلزوني الممتد داخل غرفة المعيشة.

- أريد مالي.

- لا مال لك عندي.

- صاح في غضب:

– وميراثي من أبي.

في هدوء مصطنع:

- لقد أخذت كل حقك.

في انفعال مفرط:

- أيها اللص القذر سأقتلك.

في حدة:

- بره... اخرج بره.

يندفع إلي أخيه محاولا خنقه، يهرع إليهم مجموعة مـــن الخـــدم، وبصعوبة ينتزعونه من بين يديه.

يصيح أخوه به:

- أيها الحقير الطفيلي أحسبك تروم كل شئ الشهادة الجامعيـــة ورضا أبيك الراحل عنك ودعوات أمك التـــي حتمـــا هـــي مباركة.

ودوت ضحكته الساخرة ثم أردف:

- والآن تنشد المال.

صرخ في هستيرية والخدم يوسعونه ضربا حتى سالت دماؤه:

- أيها المزيف النذل لن أتركك.

صاح بهم:

- ألقوه في الخارج.

اهتز المقعد القديم من تحت قدميه... كاد يهوي ... أحكم من لـف حبل المشنقة حول عنقه... واستجمع كل قواه وأوشـك أن يقـدم علي فعلته... استحال دخان السيجارة ضبابا كثيفا أخطبوطيا كاد يخنقه .. تشكل أوهاما وأشباحا... واختلطت الحقيقة بالخيـال .. تماوجت .. اهتزت... وتداخلـت الـرؤى فـأضحت سـرابا...

ما فتئ الطفل التائه يصيح به يصرخ من الأعماق:

- أين أمي !؟

والرجال لا زالوا يجرون فـي حمـى غريبـة يلـهثون خلـف الأوتوبيس المزدحم المارق من أمامهم في سرعة هائلة، كـانوا حفاة عراه إلا مما يستر عوراتهم، والنسوة متسكعات علي غـير هدي ملطخات الوجوه بألوان قد امتزجت بغبار الطريق.

كاد يدفع المقعد المتهالك من تحت قدميه... من الأعمـــاق جـــاءه صوت أمه المنخرط في البكاء.. يستعطفه... يصرخ في ألم:

- لا... لا يا ولدي.

وصاح به معلمه يوبخه:

- الصنعة الشريفة ليست عاراً كي تتوارى منه خجلا أو حزنا.

- وشهادتي الجامعية؟!

- أنت ميكانيكي ممتاز.

- ورائحة البنزين التي توشك أن تخنقني؟!

- أنت مرفه.

- الشحم في ملابسي يكاد يقتلني.

صرخ في وجهه:

- كفاك تدليلا لنفسك.

- استحالت الحياة بدون الحلم .. وأضحي الأمس بـــلا قيمـــة.

وبات الغد وحشا كاسرا.. رابضا في الأعطـــاف فـــي ثنايـــا مجهول مظلم كئيب

همس في مرارة مشوبة بالألم:

– لقد آن لي أن أرحل عن هذا العالم.

وهم أن يدفع المقعد من تحته.

أخذت أمه تبكي في نشيج متقطع تتوسل إليه:

- إلي أين ؟!

- إلي عالم الحق المجرد بلا أدني مأرب إلي عالم الفضيلة.

صاح الشيخ أمام مسجد الحي:

- أيها الأحمق ستذهب إلي الجحيم.

صرخ في هستيرية:

- لا... لا أني راحــل إلــي عــالم الملائكــة عــالم الطــهر والإخلاص.

وهمس الكهل في حزن مروع:

- بل إلي عالم الشياطين.

تكررت الجملة في أذنه مرات عديدة... ارتعدت فصائله.

صاح في فزع :

– لا... لا.

كثيرا ما لمح الشيخ وهو يمضي إلي الجامع ملبيـــا أذان الفجــر يرفل في جلبابه الواسع الفضفاض ،يغوص بكلتـــا قدميــه فــي الوحل، والمطر ينهمر و الصقيع قارص.

وكثيرا ما سمعه في غسق الليل يردد آيات القرآن الكريم والهدوء يلف المكان والناس في نومهم يغطون.

صاح أخوه:

– أيها الجبان الرعديد الآن تراجعت .

وهمس الشيخ في قوة:

- عد إلي عملك.
- لا أستطيع.
- لا تــترك مـــالك لــدى أخيــك حــاول انتزاعــه منـــــه

في يأس مروع:

- حاولت.
- حاول ثانية ... حاول المرة إثر المرة .. لا تيأس .. لا تــدع حقك يضيع.
- وخطيبتي.

- لا تستحق أمحوها من ذاكرتك.

وصاح به أخوه في سخرية بعد أن دوت ضحكته المـــاكرة فـــي الأرجاء:

- لن تفعل ... إنك كائن ضعيف ... فاشل.

تكررت الجملة ممزوجة بالضحكة الساخرة، كادت تحطم رأسه.

هبت ريح قوية دفعت بضلفتي النافذة وبـــددت ســـحب الدخـــان والوهم المتجمعة في الحجرة.

صاح:

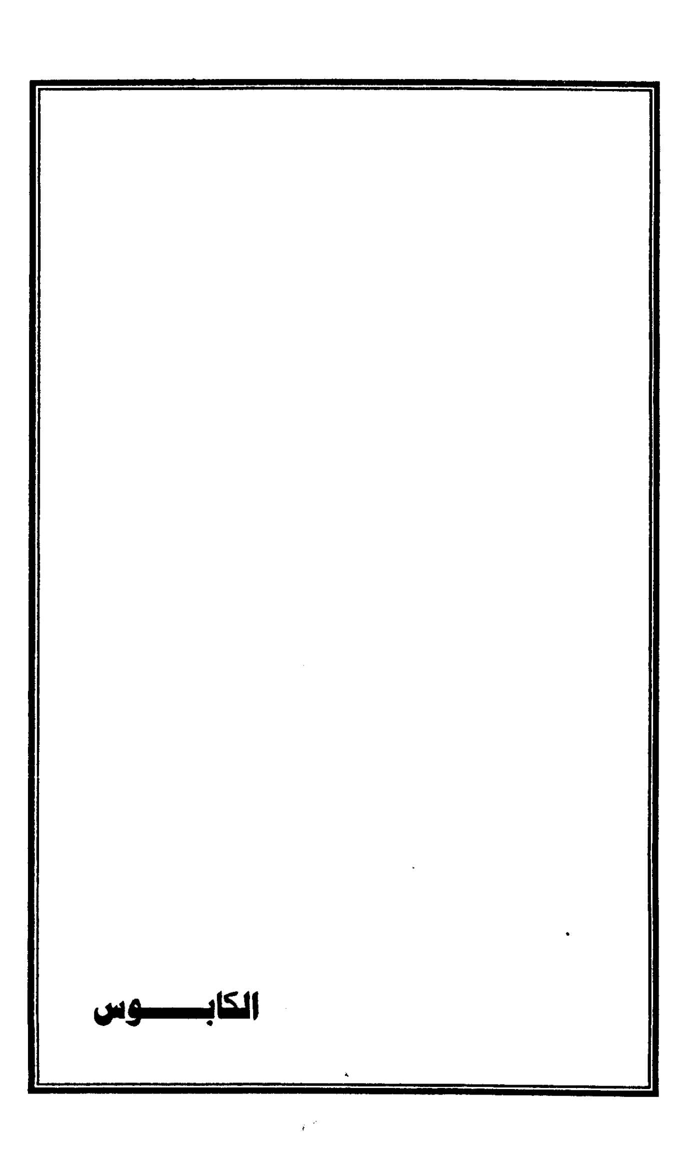
- لا ... أنا لست ضعيفا أو فاشلا سأنســـاها ... سأنســـاها إلـــى الأبد... سأعود إلى عملي غارقا في البـــنزين ملطخـــا بالشـــحم والوسخ ... وسأطالب بحقي.

وغلبته نشوة الانفعال فصاح في تحدٍ وجسده كله يهتز يضطـــرب في عنف:

- نعم ... نعم لا بد أن أحيا .. لا بد أن أعيش.

بيد أنه في تلك اللحظة تحطم المقعد القديـــم مـــن تحـــت قدميـــه وتداعى متدليا!؟

متدليا !؟


الكابــــوس



تحولت العيون نحو الرجل الذي كان يتلوى مـــن الألـــم علـــى أرض الشارع وظل كل شئ كما هو ... الليل الضارب بســـواده ... الأضواء الباهرة ... العيون الناعسة .... الهمسات الغامضـــة ... ورذاذ المطر ... وموسيقى صاخبـــة تصـــدح فـــي البيـــت المجاور تعلن عن حفل عرس يتوافد عليه المدعوون من كـــل فج.

كان جسد الرجل الغارق في دمائه يتلوى في تشـــنجات تتلوهـــا تشنجات.

نظرت إليه شابة صغيرة ذات ثـــوب قصـــير مشـــقوق حتـــى الخصر.

امتدت يد رفيقها تسحبها إلى الجانب المظلم من الشارع وعلـــى الفور أطلقت ضحكة شديدة المجون.

الجو شديد البرودة.

الموسيقى تصرخ من خلف الأبواب.

عن العزف توقفت فرقة موسيقية بالشارع كانت تمـــر صـــوب حفل العرس، والتفت أفرادها نحو الرجل.

كان لا يزال راقدا على الأرض مكـــور الجســـد ... منكســـر النظرات ... الدماء تنزف بغزارة من عنقه.

كان نصف الوجه مشقوقا بجرح يمتد حتى بداية العنق.

توقف قائد الفرقة فوق رأسه ، راح يراقبه بملامح الدهشـــة ثـــم استدار على عجل وولى إلى حال سبيله.

جذبت الشابة شفتيها من بين شفتي رفيقها ... واستدارت نحـــو الرجل لبرهة قصيرة ثم عاد بعدها كل شئ إلى حاله.

الصخب يزداد والضحكات تتعانق ... البعض يأكل ... البعـــض يدخن ... البعض يثرثر.

توقف طفل صغير يحمل على ظهره حقيبة كبيرة الحجـــم وراح يسأله في صوت متلعثم:

- ماذا بك؟

لثوان خاطفة تصلبت عيناه فوق الجرح العميق ... بـــدا علـــى وجهه الفزع الشديد ثم استدار نحو الطريـــق وانطلـــق جزعـــا لا يلوى على شئ.





عادت الفتاة إلى شفتي رفيقها تلتهمهما.

واصلت الفرقة الموسيقية عزفها.

اطلقت السيارات أبواقها تعلن عن وصول العريـــس إلـــى دار عروسه.

امتدت يد الفتى تعبث بين ثنايا ثوب رفيقته.

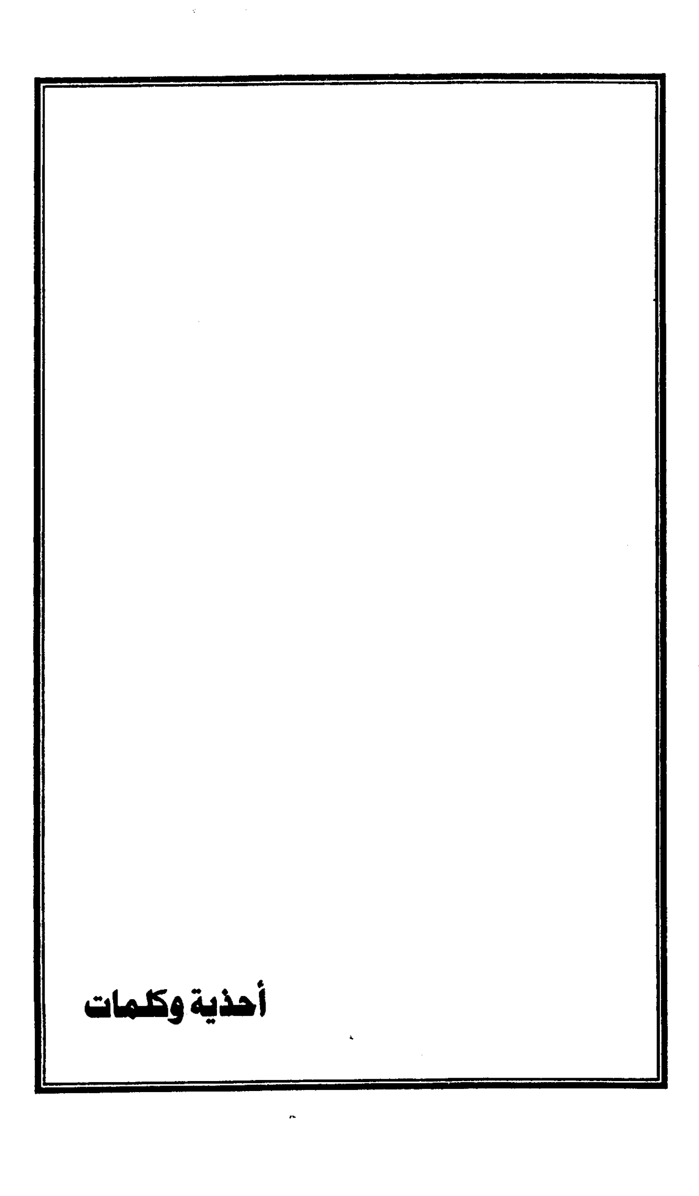
حاول الرجل أن ينهض ولكنه لم يستطع ... انقلب فوق ظـــهره ... تعثر فيه كهل عجوز ... سقطت منه جريدته اليومية قديمـــة ذات ورقات صفراء فغطت كل وجه الرجل ... تماسك العجـوز وراح يمطره بالسباب ... نهض وهو يترنح، كاد يهوي عندمـــا اصطدم بصندوق القمامة القريب منه، انزلقت قدمه فسقط علـــى ركبتيه ثم على وجهه.

كانت الشابة ذات الثوب المشقوق حتى الخصر قد تجردت مـــن نصف ملابسها ... وجعل الفتى يجوس بأصابعه المحمومة حتى دفعها فسقطت على الأرض وسقط بكل جسده فوقها.

تحامل الرجل على نفسه ...

جلس مترنحا ...

اختلطت دماؤه بطين الأرض ثم رفع وجهه إلى الســـماء وراح يستقبل **المطر**.


أحذية وكلمات



أن نهمس !!

أن ننبس !!

أن نتحاور ... !!

أن نقرأ ... !!

أن نكتب ... !!

أن نرسل الحروف والكلمات ... !!

إسرائيل ... البطالة ... الإسكان ... المواصـــلات ... التلــوث ...

الحب ... الخبز ... الجنس ...الإرهاب.

أن نتوقف !!

أن نصمت !!

أن تتمزق الصحف !!

أن تبتلع الألسن !!

أن تتكسر الأقلام .. !!

***

تضيء النور ... تنزع من فوقي غطائي الثقيل ... يـــهوى قلمـــي وتتساقط أوراقي مبعثرة في كل مكان ...

تجذبني من يدي ...

تفتح النافذة ...

تسحب الستائر ...

ضوء النهار المبهر يغمر الحجرة ...

عيني الملتهبة تلسعني.

تحتويني رعشة شديدة.

أصيح بها:

- أطفئي النور.

تواصل سحب باقي الستائر.

أصرخ:

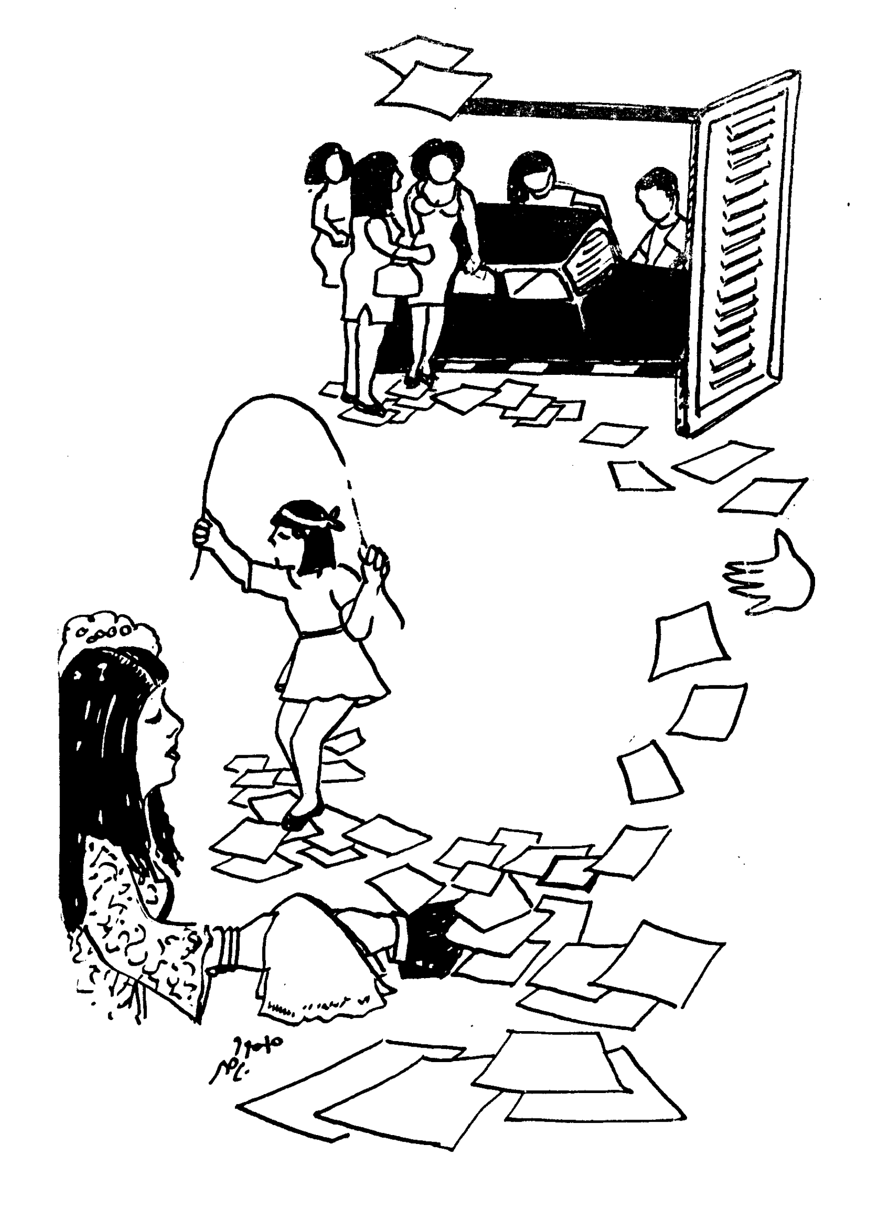
- توقفي.

تصم أذنيها بإصبعيها الدقيقتين.

عناوين الصحف متناثرة في شتى الزوايا والأركان.

إسرائيل ترفض التوقيع على الاتفاقية النووية.

ليبيا تتحدى الحصار العالمي.





أمريكا تهدد بمنع المعونات.

إيقاف حسام حسن لتعديه بالضرب على المدير الفني للمنتخب القومي.

تجمع كل الصحف وتلقى بها من النافذة.

تتحرك أحشائي.

أصيح بها في غضب:

– ماذا تفعلين ؟

تنحني على أكوام الكتب الموضوعة أسفل السرير.

تختلط في عيني المكدودتين العناوين بالأسماء.

عودة الروح ... جمال عبد الناصر ... أولاد حارتنا ... جمال حمدان ... البحث عن الذات ... صدام حسين ... الحياة فوق الضباب ... عادل أمام.

تنظر إليها باستياء مفرط ... تركلها بعنف ... تدفعها تحت السرير.

أصرخ متأوها من الألم:

–آه ... آه.

***

في الشارع كانت السيارات تمضى مارقة في سرعة هائلة والناس تزحف في صمت نحو أهدافها الضائعة.

أصرخ:

- دعيني.

يضيع مني صوتي.

تزداد قبضة يدها إحكاما حول معصمي ... تنزعني من داخلي ... تدفعني في سيارتي المتهالكة ... أقاومها،ترفض الاستسلام ... تفتح باب السيارة وتلقي بي على المقعد ... تلكزني في جنبي.

أصرخ:

- السيارة معطلة.

تمد أصابعها الدقيقة في جيبي ... تنزع مفتاح المحرك منه وتصفع باب السيارة بشدة حين تبدل معي الأماكن لتحتل هي مقعد القيادة.

محلات الملابس ... حوانيت الأطعمة ... نوادي الفيديو ... عربات الفول ... المقاهي الممتلئة رغم البكور بالرواد.

كانت جميعها صورا مشروخة تمرق منسحبة إلى الخلف عبر زجاج السيارة المكسور.

***

كشف الحضور والانصراف يكاد يخلو من التوقيعات والساعة قد تجاوزت العاشرة ... الملفات صفراء تملأ الأرفف الحديديــــة ... والأوراق مبعثرة في كل مكان ... الأرض متســــخة والحوائــط متسلخة الطلاء والدواليب متهالكة قديمة والمراوح صدئة معطلــة والأدراج مفتوحة لا تغلق أبدا ... البعض يتصفح الجرائد اليومية، البعض الآخر يرسل كلمات محذرة لخصمه من مشجعي الفريــق المنافس له في كرة القدم، وآخرون إلى المذياع منصتون.

فقط كان ساعي المصلحة يدور بينهم كالنحلــة وهــم يــثرثرون ويأكلون ويتكلمون ويدخنون.

على مكتبي تبعثرت كل المستندات والأوراق، كــانوا متحلقيــن حوله مفترشينه بأطباق الفول والطعمية وقرون الفلفل الأخضـــر وحزم البصل الطازجة وأكوام الخبز الساخن.

كانت أقراص الطعمية الساخنة ملفوفة ببقايا صفحات أحدث كتاب لي، أتذكر أنني كنت قد وزعت عليهم جميعا عدة نسخ منه.

انتبه إلى بعض زملائي وهى تجذبني صوب مكتب رئيس مجلس الإدارة، توقفت قطع الخبز في حلوقهم، صرخت بها:

- لا إلا هذا الرجل.

جذبتني بقوة، تملكني هلع مفرط، تجمدت أطرافي والتفت حـــول بعضها البعض.

نظرت إلى في ضيق مشوب بالامتعاض الشديد ومـــا لبثـت أن دفعتني وسط أكوام الورق في الأرشيف ثم سحبت طلب الإجـازة من يدي وانطلقت نحو رئيس مجلس الإدارة متجاوزة في جسـارة شديدة كل كتائب جيشه من الميكروجيب من سكرتيراته الجميلات الفاتنات جميعا والمرعبات أيضا.

وركلت بابه بعنف ودخلت إليه دون أن تغلق الباب من خلفها.

***

على الطريق الممتد نفد وقود السيارة ... لن يوقفها شيء قــط ... سحبتني من يدي وانطلقت... كـانت الأرض صفـراء قاحلـة والخط الأسود الطويل من الإسفلت لا يوشك أن ينتهي وشـــمس الظهيرة حارقة والعرق يتصبب منى بغزارة ... أترنح من الإعياء ... أكاد أسقط ... تكاد تحملني.

- الدور السابع !!

صرخت وأنا أنظر إلى بواب العمارة:

- ماذا قلت ؟!

ولكنه نظر إلى شذراً ولم ينبس.

كانت العمارة مكونة من مجموعة من الحوائط الأسمنتية وبعـض الطوب الأحمر تجاورها الصحراء من كل جانب عـــدا بعـض الدور القليلة المتناثرة على بعد.

جذبتني ... دفعتني ... حملتني.

نزعت عقد الشقة من أصابعها وصحت بها:

- أنتِ مجنونة.

حدجتني بقوة ... ارتبكت .. قلت على استحياء:

- شقة بلا حوائط ... فقط عمدان.

قطبت ملامح وجهها.

همست إليها في خوف:

- لا بأس ... لا بأس ... فلا جدوى من الحوائط ... أو البـــلاط ... أو حتى الحمام.

***

عندما وضع المأذون الشرعي يدي في يدها كدت أهرب، سـحبت يدي بسرعة وقلت لها في حزم:

- لا..ليس الآن.

نظرت إلى في دهشة بالغة !!

قلت متعللا:

- كتابي الأخير لم يكتمل بعد.

- ...

- الشقة.

- ...

-الأثاث.

- ...

- المرتب.

- ...

- مصاريف الفرح.

- ...

- أجرة المأذون.

- ...

عندما انفلت منها إلى الباب ... جذبت يدي بعنف واسقطتني علـى المقعد.

- هل تقبلينه زوجا لك؟

نظرت إلى المأذون ولم أتمالك نفسي.

حين ضحكت آلمني وجهي بشدة.

***

تحرك بأصابعها الدقيقة ضلفة الزجاج المشروخ ... يتساقط لـــوح الزجاج رويدا ... يدفن نفسه في باطن باب السيارة.

الصور المتحركة تنسحب بسرعة.

تباغتني ... تصدمني واضحة خالية من الرتوش أو الشرخ العميق أو حتى قطرات الندى.

بنت صغيرة في فستانها الملون تنط الحبل.

رجلان على المقهى يتناولان النارجيلة ويرميان بالنرد.

بضعة سيدات يتماوجن في رشاقة في ملاءتهن الضيقة الملفوفـــة بإحكام حول خصورهن النحيلة.

اصطدمت بوجهي كمية باردة من الهواء ... التفت إليها.

كانت تنظر إلى بعينين خضراوين عميقتين بينما شعرها النـــاعم الطويل يتماوج خلفها في جرأة عجيبة.

وتدافع الهواء فأطار عبر النافذة عدة وريقات كانت موضوعة في العربة.. كانت المسودة النهائية لصفحات كتابي الأخير (البحث عن الحقيقة) ولبثت الوريقات تتطاير عبر الطريق الإسفلتي الطويل.

نظرت إلي بوجه يفيض سحرا و عذوبة، أخذت أتطلع إليها في دهشة، ولكنها ما لبثت أن مدت يديها وأطبقت على أصابعي برقة، كنت مشدوها حائرا وكأنني أرها لأول مرة ... جميلة ... فاتنة ... ساحرة.

عندما هَمست قائلا في دفء:

– أحبك.

التفتت إلى ثم طوقت عنقي بذراعيها وأطبقت بشفتيها اللذينتين على شفتي.

كان الورق يتدافع خارج السيارة يملأ الشارع.

في كل مكان ...

أسفل الأتوبيسات والسيارات وكعوب النساء.

فوق النارجيلة المشتعلة وداخل نوادي الفيديو.

وتحت حذاء البنت الصغيرة وهى تنط الحبل.



صفحــة

